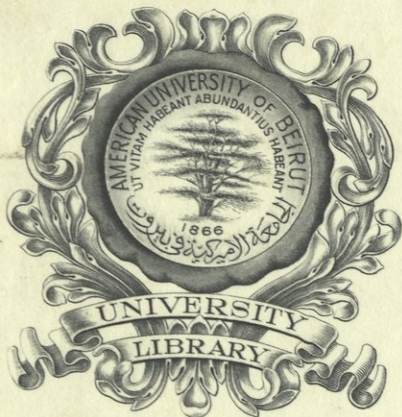


54858547

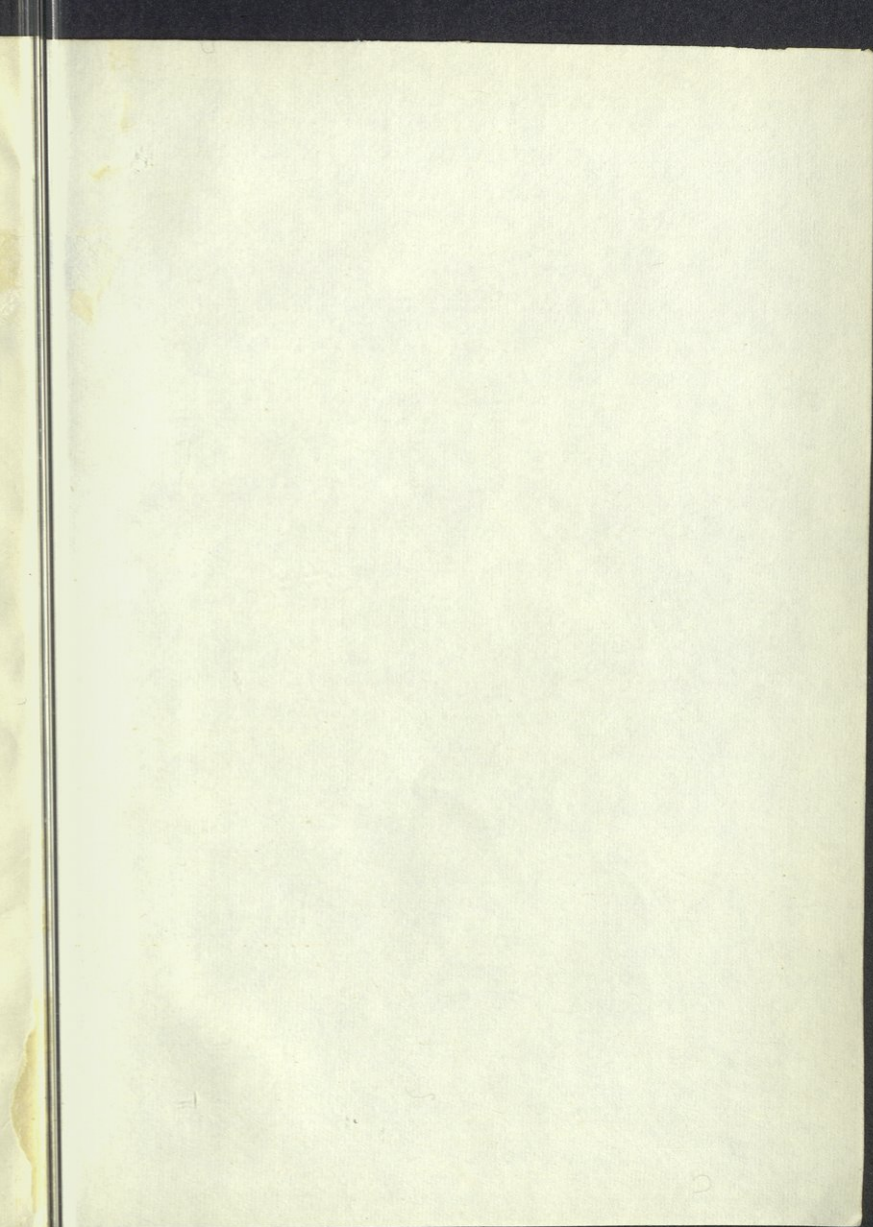
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



UNIVERSITY
LIBRARY

تجليد صالح الدقو

لنبر ٢٢٢٩٧٧



مکتبہ

872 78

55235

شیطان بک اور

کتابخانہ و قفسہ

مکتبہ

کتابخانہ و قفسہ

7



احمد شونی

892.78

Sh5985syA
C.I.

شیطان بنتاؤور

أو

لِبَرِّفِمْآنَ وَهَدْفُهُ سَلِمْآنَ

بتحقيق

محمد سعيد العرياني

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شلع محمد علي بمصر

حقوق الطبع محفوظة

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م

مطبعة الأمانة العامة بالقاهرة

تمهيد

بقلم

محمد سعيد العريان

هذا كتاب لا يعرفه قراء هذا الجيل فيما يعرفون من
آثار شوقي الشاعر النائر القاصّ ؛ وهو كتاب شعرٍ ونثر
وقصة ؛ لا أعنى الشعر المنظوم ؛ فإن حظ هذا الكتاب من
ذلك الفن قليل ، ولكنه إلى ذلك فنٌّ من الشعر يروع بلفظه
ومعناه وبماتحسّ فيه من نبضات قلب شاعره . . .

هو كتاب شعرٍ إذن وإن لم يكن منظوماً على ذلك
النسق الذي ألفه الأدباء والمتأدّبون ؛ لأن مؤلفه قد أثر أن
ينثر فيه خواطره غير مقيدة بميزانٍ ولا قافية ؛ وهو إلى ما فيه

من صفتي الشعر والنثر ، أسلوبٌ من القصص يسلكه في ذلك الباب الذي عرفه قراء العربية للرحوم أحمد شوقي في آخر ما أنشأ من فنونه الأدبية ، حين عرّض « مجنون ليلى » و « كليو باترة » و « على بك الكبير » و « عنتره » وغيرهم من أبطال الماضي القريب أو الماضي البعيد فردّهم إلى الحياة أو ردّ إليهم الأحياء . . .

ولكن القصص في « محاورات بنتاءور » هذا الذي نصفه ، ليس جارياً على ذلك النمط الذي ألفه القراء فيما طالعوا من قصص شوقي ؛ لأنه لم ينشئه ليكون قصة ذات بدء وخاتمة وعرض متسلسل ينتهي بالمقدمات إلى نتائجها حتى تنحلّ العقدة أو تزداد تعقيداً ؛ كما يفعل كلُّ قاصٍّ فيما ينشئ من ذلك الباب ؛ وإنما أنشأه ليقصّ قصته هو نفسه مع « بنتاءور » شاعر رمسيس الأكبر ؛ ذلك

الشاعر الذى خلد فى الأدب المصرى القديم أو خلد به
الأدب المصرى القديم حتى رواه لنا الحجر فى هذا العصر
الحديث بعد آلاف من السنين ...

لقد عاش شوقى ، شاعر مصر الحديثة ، مع بقاء ور ،
شاعر مصر القديمة ، حقبةً من عمره فى الخيال ؛ وكان بينهما
من الود ما يكون بين الأصدقاء ، يلتقيان على ميعاد ، أو على
غير ميعاد ؛ ويفترقان على ميعاد ؛ أو على غير ميعاد كذلك ؛
فيكون بينهما فى كل لقاء وفى كل فراق ما يكون بين
الصديقين حين يلتقيان وحين يفترقان ، من أسباب البث
والشكوى ، أو من أسباب الشوق والحنين ؛ ولكن بين
زمان شوقى وزمان بقاء ور قروناً متطاولة ؛ وبين مكانيهما
بادية جرداء متباعدة الأطراف قد انتشرت عليها أشلاء
وجاجم وآثار أمم بائدة وعروش مثلولة وتيجان محطمة ؛

فأين يلتقيان إلا أن يعبر أحدهما إلى صاحبه القرون
ومن حواليه تلك الأشلاء والجحيم والآثار ؟ ثم هل يكون
حديثهما حين يلتقيان بعد ذلك الجهد - وإنهما لشاعران -
إلا عن الأشلاء والجحيم ، وعن تلك الأمم التي كانت
ثم بادت ؟

وكذلك كان ، وجرت محاورات بنتاءور وشوقي عن
الأحداث التي تعاقبت على ضفتي النيل منذ عهد رمسيس
إلى عصر عباس ...

محاورات فيها من بنتاءور حكمته وصوفيته وما يحتقِب
من علم الماضي ، وفيها من شوقي شعورٌ مصريّ يقطُّ القلب
والعقل والضمير ، قد حَصَلَ من علم الحاضر وذائق لذات
الحضارة وتقلَّبت على عينيه صورٌ من الحياة وصور من
الاحياء وألوان من الحوادث لم يتقلَّب مثلها على عيني

شاعر رمسيس القديم ...

وكان بئتماور - فيما تُصوّره هذه المحاورات - نسرًا
مُعمرًا قد شهد الماضي كله منذ كان حتى يوم لقائه بصاحبه ،
ولكنه لم يزل يعيش في هذا الجيل بقلب بئتماور شاعر
رمسيس الذي كان يعيش على ضفة هذا الوادي منذ آلاف
من السنين ؛ أما شوقي فكان مُهدّدًا حديد البصر قد أحاط
بكل شيء مما حواليه علما ، وأحسَّ به إحساس الحيّ
بالحياة ، وصوّره في نفسه تصوير العين لما ترى والقلب
لما يشعر والعقل لما يدرك ؛ لأنه ابن الجيل الذي لم يزل
يحيا ، فهو يحس ويشعر ويدرك ويشم ريح الغد قبل أن
يكون الغد ...

صورنان من الماضي البعيد البعيد إلى ما لا تُدرّك
نهايته في القدم ، ومن الحاضر الحي المتوثب إلى ما لا تُدرّك

غايته من المستقبل - التقى على صفحة مرآة ، فاختلط شعاع منهما بشعاع ؛ فكان من امتزاج الصورتين على صفحة تلك المرآة ، ومن اختلاط الشعاع بالشعاع ، صورةٌ ثالثة تملأها العين بإعجاب ، وشعاعٌ من حكمة يُشرق على القلب بالهدوء والاطمئنان ...

تلك قصة شوقى وبنّاءور ، أو قصة هُدهد سليمان ونسر لقمان كما تُصوّرهما تلك المحاورات ؛ فيها من شوقى شعر الشاعر ونثر الناصر وفنّ القاص ؛ فهو فيها الشاعر النائر القاص الذى يعرفه قراء العربية فيما طالوا من روائعه المنظومة والمشورة والمقصودة ...

على أن لهذه المحاورات دلالة أخرى على فنّ شوقى الشاعر الناصر القاص ؛ فهو قد أنشأها - فى سنة ١٩٠١ - وهو لم يزل بعدُ شاباً فى الثلاثين أو قريباً من ذلك ، قبل

أن يتمّ تمامه في الشعر والنثر والقصة ؛ فهي من هذه الناحية
أمانة واضحة على مدى التطور الذي نال فنّ شوقي فيما تلا
ذلك من سنين تزيد على الثلاثين ؛ وهي إلى ذلك أمانة على
شيء آخر ؛ يتصل برأى شوقي في أحداث السياسة المصرية
لعصره ، منذ كان له رأى يتحدث به في تلك الأحداث .
أما بعد : فهذا تعريف موجز لكتاب من كتب
شوقي ، إلا يكن أعلاها في فنّه ، فإنه أعدها في التعبير
عن نفسه .

وإني إلى ذلك لأرجو أن أكون بما حققت من
لفظ الكتاب وما صوّبت من نصّه وما ضبطت من
كلمه ، قد أدت للعربية حقاً وأوفيت لشوقي بدّين .
وما توفيتي إلا بالله ؟

يناير سنة ١٩٥٢

مقدمة

بقلم شاعر القطرين

فخيل مطران

هي شذرات حكم؛ ونثرات فكر؛ صدح بها طائر مصر
المحكي « أحمد شوقي » من على قمة الهرم تارة ، وبين
طلول منف وعين شمس طوراً ؛ وذهب بها كل مذهب ،
في سلسلة فصول سماها محادثات ، متناولا فيها كل عبرة
جليلة ، وكل معنى غريب ، مؤاخذاً بها غضاضة مصر الآن ،
يرفعها فيما تقدم من الزمان ، معاقباً بالرفق ، محاسباً
بالصدق ، جعلها على لسان طائرين ، هما لبّد لقمان ، وهدد
سليمان ؛ ونثرها نظماً ، أو نظمها نثراً ، بحيث هي الشعر

أو أنفس ، وهي الكلام المرسل أو أسلس .

ولهذا الكاتب العظيم كلف شديد بمجد الفراعنة ، فهو لا يفتأ يذكرهم ويملا الصحف والآثار بما يرويه عنهم من عجيب الأخبار ، وإنما يريد بذلك تحريك وترجد في فؤاد الأمة عن التأثير للحال فضلا عن الحقب الأول ، وإحياء عاطفة في النفوس جفت لعدم تعهدها من بدء الأزل ؛ وهكذا الشأن في الجسم والروح ، والحس والمعنى : لا يسلم منها ما يُغفل ، ولا يستقيم ما يُهمَل .

على أننا نرى الغربيين أكثر حنيننا إلى قدماء المصريين من أبنائهم ؛ وأشد ولوعا بتعريف أسرارهم وتنسّم أخبارهم ؛ وذلك لأن حب البعيد لما يعلمه ؛ أصدق من حب القريب لما يجهله .

على أن صاحب « عذراء الهند » بعد أن ذكر فيها خرافات

جدات المصريين - وهي أشبه شيء بخرافات جداننا إلى هذا
اليوم ، مما يدل على مجانسة الفكر واتصال النسب - كان
جديراً بالانتقال إلى أسمى قفه يُلقى منها النظر إلى ما يستفاد
من قديم الخبر ، وحديث العبر ، ففعل موفّقاً ،
وتفتح باباً مغلقاً

خليل مطران

إهداء الرسالة

إلى حضرة الأستاذ الجليل العالم الفضال
الشمير الشيخ عبد الكريم سامان أحد
أعضاء المحكمة الشرعية العليا :

كَلِمَ عَزِينَ إِلَى كَلِمِ أَلْبَسْتُهُ ثَوْبَ الْحَكِيمِ
وَجَعَلْتُهُ يَدِي وَيَدِي بِالْحَقَائِقِ وَالرُّجُومِ
فَوَضَى خَوَاطِرُهُ فَإِنْ جُمِعَتْ فَكَالْعَقْدِ النَّظِيمِ
فَتَرَاهُ فِي وَادِي النَّقَا وَتَرَاهُ فِي وَادِي الصَّرِيمِ
وَتَرَاهُ فِي عَهْدِ الْعَزِيزِ وَفِي وَلايَةِ (مُصَرِّيمِ)
وَمِنَ السَّمَاءِ إِلَى الثَّرَى وَمِنَ الْخَضِيضِ إِلَى النُّجُومِ
حَتَّى إِذَا أَتَمَّتْهَا أَهْدَيْتَهَا (عَبْدَ الْكَرِيمِ)
وَأَنَا الْمَقَرُّ بِفَضْلِهِ الذَّاكِرُ الْحَقُّ الْقَدِيمُ

المحادثة الأولى

حَكَى الْهُدُودُ مِنْبِئَ الْأَنْبَاءِ ، وَشَيْطَانُ بَعْضِ
الشُّعْرَاءِ ، قَالَ :

أَكْثَرْتُ مَخَالَطَةَ النَّاسِ حَتَّى نَدِمْتُ ، وَأَطَلْتُ النَّظَرَ فِي
الْكِتَابِ حَتَّى سُمْتُ ، وَاشْتَقَقْتُ إِلَى عِبْرَةِ مَرُوقَةٍ مَوْوَقَةٍ ،
وَحِكْمَةٍ مِنْ نَفْسِهَا مَسُوقَةٍ . آخُذْهَا وَلَوْ مِنْ سُوقَةٍ ، لَا مَطْرُوقَةٍ
وَلَا مَسْرُوقَةٍ ؛ فَخَرَجْتُ إِلَى الْأَهْرَامِ فِي وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِنَا
الْمَوْصُوقَةِ ، وَيَوْمَ مِنْ أَيَّامِنَا الْمُخْتَارَةِ ، ذَهَبَ نَهَارُهُ إِلَّا
أَوَاخِرَهُ ، وَتَنَاقَبَ عَلَى الْجَوْ صَاحِيهِ وَمَاطِرُهُ :

تَعَرَّضَ الْغَيْمُ فِيهِ لِلشَّمْسِ فِي كُلِّ مَسَلَكٍ
تَرَوَّغَ مِنْهُ فَتَبَدُّو وَتَحْتَفِي حِينَ تُدْرِكُ
وَالْأَفَقَ مِنْهُ وَمِنْهَا كَالطُّفْلِ يَبْكِي وَيَضْحَكُ

فبلغتُ فضاءها ، وإذا ذهبُ الأصيلِ عليه يزهو آونة ،
ويصدأ بالغيم آونة ، والشمس صفراء في الأفق منكسرة
الاشعة ، قد كادت ولمّا تفعل ، كأنها عين الأشقر الأحول ،
فوئبتُ إلى الهرم الأكبر ، وحططت فوق حجر ، ثم
تَقَصَّيْتُ النظر ، فكانت فاتحة العبر ، وباكورة العظام
الكُبر : إذ رأيت السَّيَّاح حوالى الأثر ، يرتعون في الأصل
ويلعبون ، وينزلون عن الإبل ويركبون ، وقد ضَمَّتْ عليهم
ثيابُ الكبرياء ، وجزوا ذبول الزهو والخيلاء : فغضبت
من رؤيتهم على هذه الصورة ، وعَيَّيْتُهُمْ في النُّبُور بعد عبثهم
بالجثث المقبورة ، فقلت : أيتها الحجارة الخالدة ، اسخرى من
هؤلاء كما سخرت من قبيز وخيله ، واستهزئ بهم كما استهزأت
بنابليون وجنوده !

ثم خرجت من الغضب فأبصرت ، وتألَّفتُ ما كنتُ

أنكرت ؛ وما زال الغضب يُعْمِي صاحبه ، ويُضِلُّ رآكبه ،
ويُريه صدور الأمر ولا يريه عواقبه . أبصرت فرأيت
الغادى والرائح ، والترجمان بجانب السائح ، ولم أر من باكٍ
ولا نائح ، ولا مُهيب بالجدل والصفائح ، يحجبه صدّى من
جانب القبر صائح : فرجعت في أمر القوم إلى الرضى ،
وقلت إنما يزورون قبور الفراعنة في مصر ، كما تُزار
قصور الملوك في هذا العصر ، وذكرت ساعة قضيتها في قصر
(وندسور ^(١)) منذ ثمان سنين ، والمملكة يومئذ في الحياة ،
لا تخرج الشمس عن طرفي مُلْكها كأنهما حاشيتا النهار ،
فدخلت المقاصير ، وتنقلت في الحجر ، ورأيت فراش
المملكة وقد هجرته ، كما ينظر هؤلاء إلى مرافد الفراعنة وقد

(١) هو قصر ملوك بريطانيا ، وكانت تجلس على عرشها

يومئذ المملكة فيكتوريا .

نقل ما فيها إلى دور التحف ، وحيل بين ذلك اللواؤ وهذا
الصدق ؛ فرحم الله المصريين القدماء ، لولا هم ما ذكر مصر
الذاكرون ، ولا ظلت كعبة يزورها الزائرون :

قَضَوْا والدورُ باقيةٌ وأودَوْا وليس شخوصهم بالمُودياتِ
فما ذهبوا ولكن في اغترابٍ وما ماتوا ولكن في سُباتِ
قال :

ثم وقفت أتأمل قبور الملوك العظام ، وأذكر عبثَ
الأنام لا الأيام ، وأعجب للأهرام - وهى من عمل الأسرة
الرابعة ، وبلبيانُ المصرى فى أول عهده بالحياة وبداية
دخوله فى الحضارة - كيف رسختْ فى الأرض رسوخه فى
العلم ، ووقفتْ للدهر وقوفه فى الفنّ ، وكلما تأملتُها جزئى
العبرة عن النظرة ، والمظة عن اللحظة ؛ فرأيت النعيم كيف
يزول ، والحال كيف يحول والدولة كيف تدول ، والمُلْكُ

الكبير إلام يُؤول ؛ وبعث الموقفُ منى فقلت :
لما رأيت قبورهم كملت فما فيها لناقد
وكانها نهد الثرى وكأنه مذ كان ناهد
بليت رواسيه ولم تبَلِ العظام ولا المراقيد
وهوت حوالها الهيأ كل الكنائس والمساجد
وخلت ممالك وانطوت دُول زواهر كالفرأقد
أيقنت أن المرء بعد الموت بالآثار خالد
وأدّمت النظر إلى الأهرام ، لا لعظم في الجرم ونخامة
في البنيان ، ورسوخ في الأرض وطول زمان - فإن
استعظام رؤية الأجرام من خلائق الصبيان - لكن كمرآة
أرى فيها قدماء المصريين كما هم في العصر الأول ولما
يكتملوا دولا أربع ، فلا أرى إلا صوراً واضحة ، وأشباحاً
لائحة ؛ ثم أنظر فيها المصريين الأحياء وكأنما أتأملهم

في مرآة محدّبة مقعّرة : صورٌ مسوخة ، وأشباحٌ مُعوّجة ،
وأعضاءٌ كمختلط الأشلء من ضياع التناسب ؛ وما اختلف
الزُجاج لكنّ هي الأخلاق تُحسّن وتقبح ، وتُعلى وتُسفل ،
وتُقوم وتُعوج ، وتُريك من قوم ما لا تُريك من آخرين .
ما أبعد ما بين الأصل والفرع ، وشتان ما بين الوالد والمولود ،
ذلك قبيلٌ شادّ وسادّ ، وأجار من البليّ الأجساد ، ونشر
سلطانه على البلاد والعباد ، وأخذ لآثاره من بعده
ميثاقاً من الآباد ، حياته للبوت وموته للحياة ، يعمل للذكر
ويهيئ للأحاديث ، ويترك للأبناء ، ويعلم أن السّير حياة
ثانية ، في هذه الدار الفانية ، وأن ليس الموت إلا سفراً من
الأسفار ، ونقلاً من دارٍ إلى دار :

ولا يستوى ناءٌ يُعطلُ ذكره

وآخرٌ مذكورٌ بكلّ لسان

ونحن معشر الأبناء فيما نزع ، وذراى المصريين
القدماء فيما نتوهم ، أمة نيام ، لا نعرف الملك إلا فى الأحلام ،
كأننا ولاة العهود شابوا وآباؤهم قيام ؛ يومنا يوم العاجزين ،
وغدنا غد اليائسين ، وأمسننا لا للدنيا ولا للدين ؛ معنى
الحياة عندنا شىء باطل ، وطرفاها نعيم زائل ، وماهيتهما
أيام قلائل ؛ لاندخر صالحات ولا باقيات ، ولا نرجو
علوا فى حياة ولا ممات ، يترك أحدنا لولده من وجده ،
ولا يترك لهم من مجده !

قال الهدهد :

وما لبثت الشمس أن غربت عن بلاد ، وطلعت على
بلاد ، فآفاق فى مهرجان وآخر فى حداد ؛ فحدثت نفسى
بالانثناء ، فراراً من وحشة الظباء ؛ لكنى ما هممت حتى
شعرت بانتفاخر طائر من الجوارح ، وسمعت ها تها يقول :

يا منادى الحجر ، ومُناجى الأثر ، أخطأتك مصادوقهُ الخَبَر ،
وغابت عنك أمهاتُ العِبر ؛ هَلَّا قلتُ في شكوى الحال ،
ونجوى هذه الأطلال :

يأيتها الهرم المنحوتُ من زُحل
صَبَّ النُّحُوسَ علينا أنت والزمنُ

هَوَى حواليك مُلكٌ لا قيام له
وُعِيَّتْ في ثراك الأربَعُ المَدُنُ !

وَأَمْسَكَ الهاتفُ عن الكلام ، فالتفتُ مذعورا ، لعلّ
أرى على المكان شبحَ إنسان ، أو خيالَ شيطان ، فلم أرَ غير
نَسْر ، مستجمعٍ في وَكْر ، نَسَجَ عليه الدهر ، وهو يرنو
بصفراوي كالنَّبَر ، في كاتبيهما إنسانٌ كنقطة من حَبْر ؛
فدنوت منه وتأمّلت فيه ، وإذا هو قد وَهَنَ منه العَظْمُ ،

وتناثر الريش من الكبّر ، وشدّ مفرسه إلى ساقيه بأسباب
من الهرم ، وأكل على جَوْجُوّه الزمن وشرب القدم ؛
فقلت : لعله نُوحُ النُّسور ، أو بعض ما حمل نوحٌ معه من
الطيور ؛ وابتدرت خطابه فقلت : سلاماً أيها الشيطان !
إن كنتَ لبَدَ لقمان ، فإني هدهد سليمان !

قال النسّر واستضحك : افتريت على النبيين والطيور ،
وانتحللت لي ولك ما للغير ، أنا آدمُ الشعراء ولا إطراء ،
وأول من نطق بالقافية الغراء ، فوق هذه الغبراء !
قال الهدهد :

وكننت لم أفقه مارمَزَ إليه ، ولم أعلم مُرادَه من يميّته ،
فبشرت نفسي وقلت : شيطانٌ قديم ، فلا علمن منه مالم أعلم ،
وفوق كل ذي علم عليم . ثم قلت أخاطبه :
الأيام أيها النسّر مدارس الأحلام ، ولا يستوى

في العلم كهلٌ و غلام ، فلا أستحي أن أسألك من أنت ،
فقد استبهم عليّ ما بيّنت .

قال : أنا من سَمِيَّتَ في قريضك ، وكَرَّمَتَ في شعرك ،
وبعثتَ في قوافيك : فضلٌ لك لا أنساه ، وما كنت
تراني لولاه .

قلت : لئن صدقتَ مزاعمي ، فأنت الروح الأكبر ،
والشيطان الأشهر ، والذئب المَعْمَر ، بنتامور شاعر الملك
رعمسيس ، وحامل لواء البيان في طيبة ومنفيس .

قال : إنه أنا ، وإني بك لقرير : كنت أراك تستمع
لواعظ الدهر ، فوق هذه المنابر ؛ وتجمع الخبر والخبر ،
عن ذلك الملك الغابر ، والسلطان الغائب الحاضر ؛ وجديرٌ
بأقدم المقابر ، أن تعظ الزائر والغابر ؛ فهمستُ في أذنك
بالبيتين ، أريد أن أريك ما لم ترَ عين . انظر كيف ترَ مَنْف ؟

قلت : أطلال بالية ، ورسوم عافية ، عندها قرية كبعض
القرى ، لا تكاد تحسب من الثرى .

قال : فكيف عين شمس ؟

قلت : مزارع ورمال ، لا جلال عليها ولا جمال .

قال : فانظر الفسطاط كيف تراها ؟

قلت : بُيُوتاتٌ وأديرة ، وديار مستنكرة .

قال : فما هذه البلدة الزاهرة ، والروضة الناضرة ،

والدُّرَّة السافرة ؟

قلت : مدينة القاهرة .

قال : لمن هي ؟

قلت : لغير أهلها !

قال : هي إذن في حُكم المدن الغابرة : عواصمُ أربع ،

كنّ مقارَّ دُول ، وكراسى ممالك ، وقواعد حكومات ؛ تُغير

إحداهنّ الشمس بأبهة الملك وعظمة السلطان ، حضرت
الأهرامُ يومها وأمسها ، وشهدت مصر عها وكانت رسمها ؛
فالسأل ربك لقومك أن يكفّهم نحسها !
قال الهدهد :

فأطرقت أناقل في معاني هذه السكام الجوامع ، وأتدبّر
مغازى هذه الحكم الروائع ؛ وأنا أستعرض كرة الأرض
في خاطري ، وأقلب صفحات التاريخ في فكري ، فلا أجد
لفضاء الأهرام مثلاً فيما وصفه النسر ؛ إلى أن أخرجني
من إطراقى بأن قال :

أرى الهدهد بين عبرة جلّت حين تجلّت ، وفكرة في
المدائن الأربع كيف تولّت ؛ فهل لك في كلمات تملك
وقوتك في الظلمات ، وتريك الأمم في حال ذهابها ، كيف
ينقصها الآلهة من أخلاقها وآدابها .

قلت : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا : إني أراك في ضلالك القديم !

قال قطعت حديثي لأمرٍ لا يعنيك ، لك ما تعبد ولى ما أعبد ، ولا يَزِرُ النَّسْرُ وَزَرَ الْهُدْهَدِ : فإن كان لك في الصحبة فعلى ثلاث : ألا تُجْرى الأمور على هواك ، وألا تنظر فيها بمقتضى طباعك ، وأن تأخذها ولا تسأل عن أسبابها : فهذه الثلاثة تُخرج من العلم إلى الجهل ، فكيف تُخرج من الجهل إلى العلم .

قلت : ذلك لك يا شاعر الآلهة . فأُنجز الآن ما وعدت . قال : هلك الفراعنة وخلت الأسيرة منهم ، وذهبت دُولهم ، ونبشت قبورهم ، وعرضت جُثثَ عَزَّتْ عليهم على الناس ، ومآتمهم بينكم معاشر المصريين قائم لا ينفص ، وما مَقْعَدُكم منه إلا كالمعددة : تبكى ولا دمع ، وتندب

ولا حزن ، وتهتف بما لا تعرف من أخلاق الميت وصفاته ،
وسنة سارها في حياته ؛ يفخر أحدكم بالعظم الرميم ، ويتحلى
في حديثه بالمجد القديم ، ويُسرُّ وهو عُطلٌ من الغنى عديم ،
بمبالغ غيره من اليسارة والنعيم ؛ فإذا ذكر انصريون القدماء ،
رفعت الأنوف للسماء ، وزعمتم أنكم سلالة الفراعنة العظام ،
لكم التاج وعرشكم على الماء ؛ وإذا جرت أحاديث
العرب ، قلتم بيننا أقرب النسب ، ولنا ما تركوا من حَسَب ؛
وما هو إلا سبب قطعتموه ، ودين ضيعتموه ، ولسان عربي
بالعجمة بعتموه ؛ وإذا سُمِّي جدُّ الأتقياء ، وواسطة عقد
الأنبياء ، كنتم كلكم لآلئ الشرف ، وما خرج قط خَزَف
من ذلك الصدف ، وإذا نُصر التُّرك في حرب ، وتركوا
دَوِيًّا في الشرق والغرب ، كنتم السيوف والأكف والضرب ،
وما ذقم لها من حرب ولا كرب ؛ وإذا مات ملكٌ ليس

منكم ولستم منه ، ولا يُسأل عنكم ولا تُسألون عنه ، وخلف
لقومه سيرة تسير كالأمثال ، وخلف مفاخر لن تبديد ولن
تُتال ، كنتم المؤبنين الشعراء ، لغيركم الميراث وعليكم الرثاء !
قال الهدهد :

وبينما أنا في الإصغاء ، آخذ الحكمة الغراء عن آدم
الشعراء ، إذ قطع الحديث وتركني مفكراً في كل ما هاج بي
ذكره من قديم وحديث ، ثم صرفني على أن ألتقيه في مَنْفٍ
أصيل الغد ، وإن غداً لناظره لقريب .

المحادثة الثانية

قال المدهد :

فأقلعت للطيران ، أومُّ عُشى في حلوان ، وأنا كن
مرَّ به غرام ، على منازل الآرام ، يتلفت قلبي إلى تلك
الأجرام ، ويعزّ على نفسي أن تفارق الأهرام ؛ ثم جاشت
في صدري هواجس ، وامتأَّ خطراتٍ من الوسوس ؛
فتمنيت على فئة غير هذه الفئة ، وأمَّلت من حكام مصر بعد
مئة ، أن يتخذوا من الأهرام مقابر ، للنفر الأنفعين الأكابر ،
فيدفن فيها الجليل والعزیز ، كالبنتيون في روما وباريز ، أُمْنِيَّةٌ
إن شئتَ عُدَّها سخافه ، وإن شئتَ قل حديث خرافة :

من لى بأن تجعل الأهرام مقبرة

كالبنتيون لأهل الفضل والفظن

مفتوحةً لوفود الأرض قاطبةً

يزورها الناس من شامٍ ومن يَمَنٍ

مغنيين من الإجلال في جدثٍ

مُدزجين من الإعظام في كفنٍ

مسطورةً يُمذَّاب التَّبر فوقهم

آثارهم والذي أسدوا من المن!

تخيَّلتُ ثم خِلْتُ الأمر قد تم ، وأعلنت الحكومة

مشيئتها فيه ، وصدر الأمر العالى به ، ولم يبق إلا العمل

بموجبه ؛ فانشئت الأضرحة الفخيمة ، فى تلك الحجر

القديمة ، وأقيم الحراس على أبواب الأهرام ، وكسب على

مداخلها بماء الذهب لعظماء الرجال شكرُ الأوطان ، وقيل

هذا القبر فأين الميت ؟...

قال الهدد :

خطراتُ شاعر وأمنيةُ شيطان ، فمن حضر بعده تحقيقها
فليذكره ، ومن علم بها ولم يرها أبرزتُ من القول إلى العمل
فليعذره . ثم بلغتُ عُشى ، فنمت ناعم البال مغتبطا بما
وعدت من لقيا النسْر ، كأنما وُعدتُ مُلكا كبيرا ؛ فلما
أصبح الصبح ، قطعتُ نهاري متمللا حتى الأصيل ، وأنا
لا أدري ماذا عَنَى النسْرُ بمنف ، أهذه القرية أم تلك المدينة ؟
وهل موعدا منفي أم ميت رهينة ؟ حتى إذا ذهب معظم
النهار ، طرت إلى النيل أريد أن أعبره فوق سارية من
مُعَدَّة ، فلما شارفتُه رأيت ما ملئت منه تعجبا وتحيرا ،
رأيت شاطئين يتغايران ، وضفتين تختلفان : هذه تلوح
موحشة كأنها قبرٌ بمكانٍ قفر ، أرضٌ على الطبيعة ، وفلاح
على الفطرة ، وجيئةٌ لغير مطلب ، وذهابٌ في غير معتم ،

وزرع للفلاح إنبأته ، وللتاجر ثمرأته ؛ وهذه تموج بمعالم
 العمران ، وتتجلى في زخارف الحضارة ، وتتدفق حياة ،
 وتتوثب وجدانا ؛ فوقفت أنأمل هذا المرأى البهيج ،
 والمنظر العجيب ، والمشهد البديع وأنا أتهم الخيال ولا أتهم
 الحس ، ولا أبرئ نفسي من سحر أو مس ، وقد أنساني
 الذهول ذكر ما وعدني النسر أمس ؛ أنظر إلى النيل فأرى
 المجاديف تذهب مياهه من تكاثر السفن لديه ، وتلاقى
 الزوارق عليه ، مشحونة بالبضاعة ، مملوءة من الجماعة ،
 فكأنما أنظر إلى السنين أو الرون أو الدانوب ؛ فذكرت
 عندئذ ما قاله نابليون لجماعة من جنده في مصر - وقد مر بهم
 فرآهم ينظرون إلى النهر ، وسمعهم يتساملون أهذا هو النيل
 الذى تشيد الكتب المقدسة بذكره ، وتبالغ الأجيال فى
 قدره ؟ إن السماع به خير من رؤيته ! - فاقترب منهم وقال :

إنه لا يُعَوِّزُ النِيسِلَ إلا خمسون عاماً، ثم يبدو لكم كما تصفه
الكتب المقدسة أو أجل! فقلت في نفسي: لئن زعم نابليون
أن مصر لا ينقصها إلا التمدن ولا بد أن تتأله على يد
الفرنساويين أو غيرهم من الأمم المتقدمة، فقد مرّة عام
لا خمسون^(١)؛ فما بالي أرى هذه الضفّة بحالتها التي رآها
جنود نابليون عليها، وأرى لدى هذه نعيماً ومُلْكاً كبيراً؟
وبينما أنا في التخيل تارة والتأمل تارة، والتوهم مرة واليقن
كرة، بُصِرْتُ بزورقٍ يقترب مني، ويُجريه عُصبة من المجذفين
في الزيّ المصري القديم كما تمثّلهم لنا الآثار، وقد نهض
فيه رجل كأنه المثال المنصب رونقاً واعتدالاً، وسكينةً

(١) أنشأ المؤلف هذه المحادثات - فيما نرى - بين سنّي

١٩٠٠ و ١٩٠١ وقد مضى يومئذ على الغزو الفرنسي أكثر

من مائة عام .

ومهابة ، وهو مكشوف الرأس ، لابس ثياب المصريين
القدماء كذلك ، فأشفقت من رؤية الزورق ورجاله لأول
وهلة ، وتحفزت المطار ؛ فصاح الرجل بي يقول : إلى
ياهدهد ، إني أنا النسر فلا تخف ولا تجزع !

قلت : وما بَدَّلَكَ يامولاي ؟ وما هذه الحال ؟ وَهَبْنِي
جِئْتُ إِلَيْكَ ، فأين تريد أن تجعلني ؟
قال : تقدَّمْ ثم تكلم !

فطرت من فوري إليه ، فتلقاني بكتنا يديه ، ثم رفعني
فوق كتفه ، وقال : هذا مكانك فاستقم فيه ، ولا تُسكثر من
التلفُّت والاتفاض فتؤذيني .

قلت : سمعاً وطاعة يامولاي !
وعندئذ أشار إلى الملاحين أن يثثوا بنا راجعين ،
فسالت أيديهم بالزورق في نهر سَرَى به الجلال ، وخط عليه

الجمال ، تتلاقى السفن فيه كالجبال ، تنوء بالبضائع والغلال ،
وتفيض من الرجال والأموال ؛ فسألت النسر : لمن هذه
الأرباح يا مولاي ؟ لقد أذكرتني كنوز سليمان عليه السلام ،
وجواريه المنشآت في البحر كالأعلام ؟

قال : هذه رعية مولانا الملك رمسيس ، تروح وتغدو
بين طيبة ومنفيس ، ناهضين بالمتاجر الجسيمة . قائمين بالأعمال
العظيمة ، تجرى السفن بهم ليل نهار ، بين شاطئين كلاهما
محطُّ لرحال التجار ؟

قلت : وإلى أين تمضي بى الآن يا مولاي ؟
قال : ألم أقل لك موعدنا منف ؟ وهانحن قادمون ،
وهذه معاملها تبدو وتظهر ، وتلك مجاليها تضيء وتزهر .
فأخذنى الدهش ، وصحت : الله أكبر !
فأنكر النسر على صيحتي ، وقال : ألم أودبك بالأمس ؟

فهلا داريتنا في دارنا ، وأرضيتنا في أرضنا ؟

قلت : وما عساي كنت أقول يامولاي ؟

قال : كان أولى بك أن تسكت ، أو أن تقول : الشمس

كبيرة وحفيدها رمسيس كبير !

قلت : لا أعود لمثلها يامولاي ؛ فهل لي أن أرى حفيد

الشمس ذاك ؟

قال : ستراه وتسمعه ، فلا تعجل ولا تؤذني بأسئلتك !

ثم استقر بنا الزورق ، ونالت أقدامنا منفيس ، فإذا بها

تحلت من الزخارف بكل نفيس ، وتجلت تحتال في حلال

البهاء وتميس ، حيث التفت رأيت حولى عزازة وعمارة ،

وثروة ويسارة ، وصناعة وتجارة ، وجاها وإمارة ، وجود

البر والبجارة من كل زي وشارة ؛ فلم أتمالك أن اغرورقت

عيناى بالدمع ، فالتفت النسر إلى وقال : أدمعة سرور

وفرح ، أم عَبرة أَسَى و تَرَح .

قلت : بل كُتاهما يا مولاي ، فلئن سرني أن أرى هذا
المجد لمصر أولا ، لقد ساءني أني لا أراه لها أخيرا .

قال : لو أن فوق كل شبر من أرض مصر هدهداً يملؤه
دمعاً لما أغنى ذلك عنها شيئاً ؛ فعليك بالتأمل والاستقراء ،
قبل البكاء والاشتكاء ؛ والتبصر والاعتبار ، قبل
النحيب والاستعبار !

فكفكفت دمعى وقلت : لا يكونن إلا ما أمرت
يا مولاي .

قال الهدد :

ثم مررنا بهيكل يأخذ العين ويتملك النفس ويأسر
الخواطر ، ويستوقف اللبَّ قبل الناظر ، فتوجه النسر وجهته ،
ثم دخل بين حراس ينحنون له تعظيماً وإجلالاً ، وكُهان

يُوفونه تحية واستقبالا ؛ وهناك جعل يطوف بي حول
القواعد والأركان ، ويرفع بصره إلى دعائم البليان ،
ويتنقل بي من مكان إلى مكان ، ويذهب بي صعداً وصيّباً ،
في حجر عالية غالية ، ومقاصير خالية من عيب خالية ، منها
الداجي المظلم الحالك ، وبعضها منور للشمس إليه مسالك ؛
وهو يقول : هذا يابني الهيكل الأشهر ، بيت (فتاح) الإله
الأكبر ، حامى حمى هذه المدينة ، وملبسها الأمن والنعمة
والزينة ، تنقل معي من حجر إلى حجر ، ومل معي عن أثر
إلى أثر ، وأنعم النظر في هذه النقوش والصور ، ترها في
ضمائر الجفن أدق من الخواطر والفكر ، وما صنعت في نور
الشمس ولا في ضياء القمر ، لكن في ضوء سراج ضئيل
غير وهاج ؛ ثم تأمل في الحجر بجانب الحجر ، كأنهما واحد
انقسم على نفسه شطرين . انظر إلى هذه الجبال كيف

قُطعت ، وإلى الأساس كيف وُضعت ، وإلى العمد كيف
رُفعت ، وإلى الزخارف كيف جُمعت ؛ هل ترى في جميع
ذلك إلا معرفةً في العلم ، ودرايةً في الفن ، ومهارةً في الصناعة ؛
وغير إحكام في الصنع ، وإتقان في العمل ، ورغبة في الشناء ،
وهمة عالية في الأمر ، وذكاء فائق في الأمور ، وطاعة واجبة
للملك على الرعايا ، وعدالة مفروضة للرعايا على الملك ؛ وهذه
يا بُنَيَّ أُسُسُ الآداب ، ورموس الأخلاق ، وقوى الحياة في
الأمم ، وسرُّ نجاح الشعوب .

قال الهدهد :

وكنْتُ أراعي النسر وفكرتني في المَلِكِ ، أتمنى أن أراه
مرة واحدة ، فناجيتُه بذلك ، فغضب من هذه المفاجأة ،
وقال : الملوك أيها الهدهد في كل مكان من ممالكهم ،
إذا تغيبوا حضرت مأثرهم ، وإذا احتجبوا سَفَرَتْ مفاخرهم ،

فحيث نقلت القدم في هذه العاصمة ، حدثك عز المليك عن المملك
ووصفته لك هذه الدولة الكبرى كأنك تراه ، على أنى
سأنيك سؤلك ، وأجعلك من رمسيس بحيث تسمع وترى ،
فلا تعجل على ، ولا تكن كمن يزورون الاستانة ولا أرب
لهم إلا « حفلة السلامك » ، وإذا قضوا أربهم من حضورها
رجعوا إلى أوطانهم متبجحين بما لم يعلموا من أبهة ذلك
الملك ، وعظمة ذلك السلطان !

قلت : أفيرضيك أن أكف عن السؤال يا مولاي ؟
قال : أسأل ما شئت إلا الصغائر ، فإنها تقتل النفوس ،
وتطفئ نور العقول ، وما اشتغل بها شعب إلا هلك حياً ؛
إن لرمسيس وجهها كبعض الوجوه ، وجسمها كسائر الأجسام
لكن إذا وقفت على شيء من بسطة ملكه ، وامتلات نفسك
مهابة من سعة دولته ، ورأيت آثار نعمته على رعيته ،

ثم لقيته بالذات ، لقيت إلهًا في زى إنسان ، تنحسر في
جلالته العيان ، ويخفق لأدنى لحظة منه الجنان .

قلت : مررنا في مجيئنا إلى الهيكل بعمائر شتى ، وأبنية
تشيد ، وهياكل تُعمر ؛ فكنت أرى العمال صنفين ، والصناع
فريقين مختلفين ، فما شَرَف من الأعمال وكان للعقل والرأى
معظمُ الأثر فيه ، تولاه المصريون بأنفسهم ، وما خَسَّ منها
وكان شاقا يشترك فيه الساعد والجسم ، كعمل الطوب ،
وجرّ الأثقال ، قام به طوائف من الناس زَرِيَّةً أزيأوهم ،
مختلفة صورهم ، مسودة وجوههم ؛ فمن هؤلاء يا مولاي ؟
قال : غرباء أسروا في الحروب وجيء بهم إلى مصر ،
فأرواحهم مباحة للملك ، ينهب منها ما يشاء ، ويُستخر من
استبقى فيما يشاء ، ويجود ببعضها على قواد جيوشه الذين
جنوا معه ثم الوقائع ، وشهدوا بجانبه المعارك والمعامع .

قلت : عجباً لكم معشر الآباء ، تبلغون هذه المبالغ من المدنية ، وتأخذون هذا النصيب من الحضارة ، ثم تقسو قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ؛ فلو اطلع الإفرنج خلفاؤكم في الأرض اليوم على سيرتكم هذه في معاملة الغريب والأسير ، لانكروها عليكم إنكاراً ، ثم لَوَلَّوْا منكم فراراً .

قال : يبقى الحَيْفُ ما بقي السيف ؛ وليس ما نسبت إلى أصحابك من الرحمة المتناهية ، وعَزَوْتَ إليهم من الفلسفة العالية ، إلا ضلَّةً من حلمك ، وقلةً في علمك ؛ ينكرون على ملوكنا أن يلغوا من ليس من دينهم من الأمم ، وما أشبههم في ذلك بإدوارد السابع ، يوم ذم المذهب الكاثوليكي بمسمع من الأشراف تباع هذا المذهب ؛ ويرموننا بفرط الكراهية للغريب واقتناء الحقده ، ولنا في ذلك أعذار مقبولة ، فما

بششنا في وجهه قط ، ولا استئذنا إليه مرة ، إلا طمع في ملكنا
وأفسد علينا أمرنا ؛ على أننا علمنا الأمم من بعدنا شرع
الوطنية ، وعرفناهم كيف يطول عمر الدولة عند قوم ، وتمد
برهة الحكم بينهم . إذا هم اعتمدوا في جميع أمرهم على أنفسهم ،
وضربوا على يد الأجنبي أن تعبت في شئونهم ؛ ولئن بالغنا
للغرباء في سوء المعاملة ، فلنا من موقع بلادنا الطبيعي عذر
واضح ؛ فما مصر إلا سهل سهل غزوه والإغارة عليه ، ووادي
مكشوف للأبصار الطامحة إليه ؛ فلو لم يسهر عليه منا الساهرون
لما لبث في قبضتنا طوال تلك القرون ؛ أما أسير الحرب
عندنا فأشقى منه أسير الاستعمار عندهم ؛ يزرع لهم ويحصدون ،
وينبئ لهم ويسكنون ، ويسهر عليهم وينامون ، ويفتح لهم
البلاد ويمتلكون ، وإلى بعض هذا ينتهي الشقاء
والصغار والهون .

قلت : يكاد عليك يسع الأشياء كلها يا مولاي ؛
فلو علمتُ ما مراد الملك رمسيس من مواصلة الغزو ومتابعة
الغارة ، والخروج من حرب والدخول في حرب ، ومنزلته
بين الملوك الغابرين منهم والحاضرين ما لآثرى أبصارهم خلفها
مطرحا ؛ فهلا أقز السيف وحقن الدماء ، فقد ملك الأرض
فهل يريد أن يملك السماء !

قال : السيف يا بني يُعلى السيف ، والدول إذا كبرت
وعز مقامها وتغابت وعرفت الجاه والنفوذ ، جدَّ بها الحرصُ
على البقاء ، وطمعت في المزيد من الارتقاء ، مخافة أن تقف
فيدركها اللاحقون ، أو تنهمل فيفوتها السابقون ؛ وقد
جرت العادة بين الناس أن الضعيف لا يزال يرمى القوي
بالبغي حتى يصير ذا قوة مثله فيطغى مثل طغيانه ، والفقير
لا يزال يتهم الغني بالجشع حتى يثري فيصبح هو الأَجشع ؛

وليس ما ترى من رحمة الناس البوير وما تسمع من ذمهم
 الإنكليز المُعمِلين السيف في جنوب أفريقيا منذ عامين^(١) ،
 إلا حسداً لا ينفع البوير ولا يصغر الإنكليز ؛ ولو أن
 إحدى الدول مكانهم ما كان شأنها إلا شأنهم ؛ على أن الفتح
 إذا نفع القاهر مرة ، نفع المقهور ألف مرة ، فرميس إنما
 يُخرج الأمم من الظلمات إلى النور ، فيفك عقولهم من
 عقابها ، ويشفي نفوسهم من ضلالها ؛ ولولا فضل المصريين
 على أهل الأعصر الأول ، ما قامت للأحباش دولة ، ولا
 اجتمع للعبرانيين أمر ، ولا انعقد للأشوريين لواء ؛ سرى
 نورهم في الأمم المجاورة ، وامتدت حياتهم إلى الشعوب
 المعاصرة ؛ وهكذا سنة الدهر في الناس : أواخر يرثون
 الأول ، ودول تبني أنقاض دول ...

(١) انظر الملاحق ص ٣٤ .

قال الهدهد :

فَعَذَّبْتُ مَقَالَه النسر في نفسى ، كأنها لفظ الشفاء على
لسان طبيب ، وقلت : لقد أخرجتنى من يأسى يا مولاي ،
وعلمتنى من مستقبل مصر مالم أكن أعلم !

فَتَنَهَدُ بِلْتَامُور وقال : تجمع كل أمة جوامعُ شتى من لغة
ودين وجنس ، وأمل ويأس ، وسراء وضراء ؛ وأنتم
لا تعرفون غير جامعة الموت تجمع الأعداء ...

ثم قطع الحديث وقال : هذا شيء تتحدث فيه بعد ،
فلنبق فيما نحن فيه من اجتلاء المناظر والمشاهد ، ومناجاة
المعالم والمعاهد .

قلت : ذلك أنفع لى يا مولاي ، فما هذا التمثال القائم
بين مقاصير الآلهة من الهيكل ، وبين مجلس الملك ومنصب
عرشه منه ؛ إني أراه كعون بن عتق فى ضخامته التى يزعمون !

فمضى السر إلى الشمال وجثا لديه ، ثم نهض وقال : فرغ
 الملك من حروبه التي تسير كالأمثال ، وأمن تخوم ممالكه ،
 وأخذ بالثقة من المستعمرات الواسعة ، وفرق جيوشه في
 البسيطة يعززون فيها آية الملك ويحمون أطرافها ، وأصبح
 من ثبوت الدنيا له ، واستقامة الأمر في يده ، بحيث قلتُ
 في وصفه ومدحه :

رئيس يا ملك الدنيا وواحد
 وبضعة النور وابن الكوكب الأحد
 الشمس مثلك بعد اليوم لا ولدت
 والشمس مثلك قبل اليوم لم تلد
 فإن تكن في سرير المجد خالدة
 فإن عرشك مرفوع إلى الأبد
 ... حتى إذا فرغ من تشييد مملكته والاحتياط

لحفظها ، وجعلها بئامن من الحساد والأعداء ، ففكر فيما
يُخلد اسمه ، ويؤبّد ذكره ، ويكفل لتاريخه الدوام ، فبنى
المدائن ، وأنشأ في كل واحدة منها هيكلًا خاصًا بإله أهلها
الذى يعبدون ، وسوّر هذا الهيكل القديم بالأعمدة التى
تراها محيطة به ؛ وليس أنخم ولا أضخم ولا أجلّ فى الآعين
منها - أمر أن تصنع صورته معظّمة وتُجعل فى الهيكل ، فعمل له
هذا التمثال وطوله ثلاثون ذراعًا ، وهو من عمل الأسرى
وحدّهم ؛ وقد غنى الملك بأمر ذلك ، فرغب أن يُكتب أنه
« لم يعمل مصرى فى هذا التمثال » .

قلت : وفيم هذا التبرؤ يا مولاي ، ولو أنه من صنع
المصريين لكان بالملك أليق ، وليكانوا به أحق ؟

قال : إن رجلا يرفع أكبر دولة فى الأرض ، ويقهر
أربعين أمة ، ويضع حدود مملكته أنى شاء ، لا يؤخذ

بكبيرة ، فكيف يلتقد في صغيرة !

قلت : لأنت في دفاعك هذا عن الملك أشعر منك

في مدحه !

قال : إنما أديت بعض حقه .

وهنا غلب النعاس على النسر ، فجعل موعد الهدهد

ميدان الملك في أصيل الغد .

المحادثة الثالثة

قال الهدد :

كنت في صدوري عن ميت رهينة تحت سماء الليل ،
أنظر قلة الرسوم لديها ، وأرى ندور الأطلال عليها ،
وما هي إلا مقابر بعض الملوك ، ومدفن العجل أليس ، وذلك
التمثال في حفرة التي تنزل به عن سطح الأرض بقدر
ما جرى الدهر على منقيس في سالف الأحقاب ، وما عقدت
سنبلك خيله عليها من متراكم الحصى والتراب ؛ فأعجب له
كيف لم يبق من حواء العواصم غير بقية لا تذكر في جانب
ما رأيتها عليه من السعة المتناهية ، والعظمة الجمة ، والعمارة
المدهشة ؛ وتبصّرت ملياً في السبب ، فلم أر الداء إلا موقعها
الذي عرضها في كل زمان للفيضان يعلوها ، وأسفلها إلى

رياح الصحراء تختلف عليها فتدروها؛ وذهبت مع المؤرخ
عبد اللطيف^(١) إلى أن معظم البلوى إنما جاء من عبث
الأمم المختلفين أدياناً الذين أغاروا على وادي النيل، ومدّمهم
يد الحسد إلى آثار الفراعنة بمعاول الجهل، وما زال الحسد
بمرصد للفضل، وما انفك الجهل عدو العقل.

قال :

وكان جَوْجُوى قد جاش بالشعر عند ما نظرت التمثال في
حالیه، وخبرته في يومیه، فقلت فيه :

إن جئت «منفاً» وهى أو لى بازديارك وانتيابك
ومررت بالاطلال مرّاً فى يحيىبك أو ذهابك
بالأمس كنت مؤلّها ماذا اقيمت من انقلابك
لا ينظرون إلى ذراك وينظرون إلى رحابك

(١) يعنى عبد اللطيف البغدادى.

ويخاطبونك راغبين إلى ثوابك عن عقابك
أزرى برميسيس اليسلى وهوى به زمن هوى بك
وقصار خطبك عند ذى نظر يبالح فى خطابك
عابك أحداث الزمان فكنت أكمل عند عابك
وحضرنى بشأن هذا الأثر شىء من قبيل ما مر بالفكر
بشأن الأهرام؛ فأقلت من جهة أن ينشط المصريون يوما
لتشييد بنائه، وتكملة أعضائه، وتجديد حسنه وروائه،
عسائم يقضون بهذا العمل الجليل، حق خير ملك لخير
جيل، رأى وادى النيل؛ وتمنيت من جهة أخرى أن تفشو
التأثيل فى مصر، لأن فيها بعض المكافأة لمن سلف، وتعظيم
شأن الحياة فى نفس الخلف؛ ثم فكرت فى رجل عظيم
القدر جليل المقام، خطير الشأن فى صحائف الأيام، لاصحف
الأقوام؛ تضىء من أياه ثنايا التاريخ، وترفعه أعماله فوق

البرجاس والمريخ ؛ إذ مات رشحته الأمة المصرية ، ليمثل
بالحجارة الأبدية ، ويبجل بالكلمات الذهبية ؛ فما زال بي الوهم
والخيال ، حتى وجدت طلبتي في الرجال ، ولم يبق إلا عمل
التمثال ، فقلت حينئذ في نفسي : أين من يصنعه ، وأين آلات
ترفعه ؟ وكنت خرجت من أحلامي في المدينة الغابرة ،
وبلغت مقامى في ضواحي القاهرة ، فذمت أطيب المنام ،
أصلُ الأحلام بالأحلام ، حتى إذا طلع الفجر ، انتهتُ
أشوقَ ما كنت إلى النسر ، يطول النهار ولا صبر ، كأن
إحدى ساعاته شهر ؛ ومالى لا أشتاق معلّى الحكمة في
الحديث ، وملهمى القديم من العلم والحديث ، ويمثل الحقيقة
في حسي ، وكنت أجهلها في أمسى ، أو أغالط فيها نفسي ؛
ولما جاء الأصيل ، هجت إلى شاطئ النيل ، فوجدته كما عهدته ،
وألقيت الحال ، مازال : صغرت مدينة وكبرت مدينة ،

وعطلت خفّة وضفّت على اختها الزينة ؛ فاطمأن قلبي وقلت :
صدق النسر وعدا ، وعمدت لأقرب الزوارق الحاضرة ،
وهي كالعرائس في النيل خاطرة ، بعضها في جيئة وذهاب ،
ومنها المتسابق في كل منساب ، الآخذ بأنواع الرياضات
والألعاب ، حتى خُيل لي أنه التاميز ، أو أني لدى السين في
باريز ؛ فنظرت إليه وأنا أحسب أن سأجد سارية أحط
عليها ، وأستند في وقوعي إليها ؛ فوجدت جزاء من ينقل
قدمه ولا يبصر قدامه ، إذ عاق جناحي ، فالتفت فإذا أنا في
يد رجل تعلوه كبرة وفترة ، ويضرب لونه إلى الصفرة ،
وعليه ثياب مزركشة من ثمين الكتان ، وقد جلس أمامه
غلام من أوسم ما استخدم الكبراء ، فقلّبتني قليلا ، ثم دفعني
إلى ذلك الغلام ، وقال : هذه طلبتنا ، ساقها الآلهة إلينا ؛
فتحفظ عليها ، فقد تفاءلت أن شفائي فيها ؛ ما زال طبيب

الرأس يحيلني على طبيب الأحشاء ، وهذا يرشدني إلى الطبيب
الروحي ، وهو يرى دوائى فى مساملة الهياكل ، وقد أعيت
الجميع علتى ، حتى وصف لنا مضحكنا (أوتا) الذى اشتهر
بصدق تجاربه ، على قصر قامته وتشويه خلقته ، أن
رأس الهدهد إذا سُحق ، وأُضيف إليه قلامة من حافر البغل ،
ومُزج هذان بشىء من شحم الخنزير المذبوح قربانا
لأوزيريس الإله والقمر فى ليلة تمامه ، ثم تناولت كل يوم
حبة من هذا التركيب ، فقد ينفعنى ذلك فى علتى التى حارت
فيها العقاقير ، وعجز عنها الأطباء !

قال الهدهد :

فما استتم الرجل حتى ذُبحت من الذعر بغير مُدية ،
وقلت فى نفسى : ما ذنبى حتى يختلط رأسى بحافر البغل وشحم
الخنزير ، وليس أحقر من هذين ! فجعلت أفكر فى حيلة

تنقذنى من هذه المِيسَةِ الشنيعة ، فرأيت أن أنطق لعل الأمير
يستعظم الأمر فيضنّ بى ، ففعلت ، فإذا أنا طليق الجناح
أطير ، فنظرت تحتى فرأيت الرجل يشير نحوى براحتيه ،
كأنه يستغفر لى أو يستغيث بى ، والزورق يكاد ينقلب بمن
فيه من هول ما فاجأ رجاله من أمرى وشهدوا من حالى
مع مولاهم ؛ فضحككت من رؤيتهم على هذا الحال ، وارتفعت
فى المطار حتى جازتنى المدينة ؛ فجعلت أحط تارة فوق جدار ،
وأستتر أخرى فى الأشجار ، وأتنقل من حانوت إلى دار ،
وأنا فى هذه الأثناء ألحظ بحمل الأحوال ، وأتزود من
المدينة نظرة عامة ، فرأيت حركة لم أر مثلها فيما غبر ،
وشهدت من الظلمة ما يصغر المدائن الكُبرى : شوارع
وسبعة ، ودورٌ رفيعة ، وحدائق بدِعة ، وجماهير متدفقة ،
وشرطة منبّهة متفرقة ، وخيل مركوبة ، ومركبات مجرورة ،

ومخازن تفيض من صنوف المتاجر ، وحوانيت لا تحصى
لديها ضروب الصنائع ؛ وكان من أعجب ما رأت العينان ،
أنس الحيوان إلى الإنسان ، واطمئنان الطير إليه في كل
مكان ، تمشي بجانبه آمنة ، وتتوئب حوله مطمئنة ، وأعجبها
السكرانكي ، رأيتها تتألف الأهالي وكنت أظنها لا تستأنس ؛
ورأيت نساء العاقمة يحملن أحماهن على الأكتاف ، ويجعلها
رجالهم فوق الرموس ؛ وتلبس المرأة ثوباً واحداً ، ويلبس
الرجل ثوبين ؛ وقد دهشت من تَوَحُّدِ الزى عند القوم ،
وإيثارهم من اللباس الكتَّان أو الصوف ، واختيارهم من
الألوان الأبيض ، مع نظافة تضرب بها الأمثال ، فكأنما
كملت الجوامع فيهم حتى هذه ؛ وتحيتهم في الطريق أن يفيض
أحدهم يميناه إلى الأرض ؛ وإذا عارض كبيرهم صغيرهم
تنحى حتى يعبر ، وإذا مرَّ به وهو جالس قام له حتى يمر ؛

ورأيت جميع الحيوان في الطريق إلا الخنزير ، ثم عرفت
السبب اتفاقا ، وذلك أنى بُصِرْتُ بزحام ، فاقتربت منه ،
فعلت من تساؤل الناس أن أحدهم تَمَسَّحَ به خنزير ، فهم
يسوقونه إلى النهر ليُغَمَسَ فيه بجميع ثيابه ، وهم يعتقدون
أنه لا يَطْهَرُ بدون ذلك ؛ فريت في نفسى لحاله ، وضحكت
من أمر هذه العادة ؛ ثم احتوانى ميدان عظيم ، ينحسر
الطرف فى جوانبه ، ولا تحيط العين بأطرافه ؛ فابتهجت
باستقباله ، وقلت : لعله ميدان الملك ، ولعل الملتقى قريب !
وفى الواقع كان الأستاذ بن تمام ورأول إنسان وقع نظرى عليه ؛
رأيته يشير بوجهه المتهلل نحو السماء ، وكأنما يفتش عنى
الجِوَاء ، وَيَنْشُدُنِي فى طبقات الهواء ؛ فلما أخذنى بصره ،
رفع يده يستنزئى ، فهبطت فيها ، ثم وثبت منها إلى كتفه ،
منتفضاً من التأنس والجبور ، مرنقا من غَلَبِ السرور ؛

فسألني عن أمري ، وما لقيت من وحدتي في رحلتي ، فحدثته
حديثي أوله وآخره ؛ فضحك من حادثة الزورق وقال : تلك
وحدة لم يكن لك عنها غنى وأنت في أول أيامك بهذه
المدينة ، لأنني أردت أن تجمع في حكمك عليها بين ما تسمع
منى وماتراه في خاصة نفسك ، من أحوال أهلها وأطوارهم ،
وأخلاقهم وعاداتهم ؛ فما رأيك في ذلك المريض ؟ قالت :
أحق جاهل يا مولاي ، وأطباءكم أحق منه وأجهل ؛ وإني
لأعجب منهم كيف يبلغون في الطب إجارة الجسد من
الفساد ، وحفظه من البلى على مدى الآباد ، ثم ينزلون إلى
الإيمان بالرقى والطلاسم ، واعتقادهم أن رأس الهدهد وحافر
البغل من العقاقير النافعة في بعض الأدوية . قال : الخرافات
يا بني وجدت مع الإنسان منذ البداية ؛ وسوف تصحبه إلى
النهاية ، ولو بلغ من المدنية أقصى غاية ؛ وأظنك عهدت باريز

لا تخلو منها ، وهى فيما يزعمون عاصمة العواصم ، وكرسى
 التمدن القائم اقلت : كذاك هى يامولاي . قال : لكن هَلَّا
 أخذت من عبارة المريض أن الأطباء فى منفيس ضروب ،
 وأن تَوَزَّعَ الأعمال قاعدة التطبيب بينهم ، فهذا للرأس ،
 وذاك للبطن ، وآخر لأمراض العين ، ورابع لأدواء
 الأذن : كل على قدر اجتهاده فى الفرع الذى وقف نفسه
 عليه : وهذا ما صار إليه الطب أخيراً عند الغربيين ، وهم
 يعتقدون أن ذلك بداية النجاح الحقيقى ، وفتحة عصرٍ للعلوم
 الطبية لا يقف ارتقاؤها فيه عند حد ؛ فلو لم يكن من فضل
 أطبائنا الحقى الجهلاء سوى أن القوم أخذوا عنهم هذا المبدأ
 الجليل ، لكفى ؛ على أننى عالم بأن الطب لم يتقدم فى هذه
 العاصمة التقدم اللائق بمنزلتها فى الحضارة ، الجدير بمبالغتها
 فى المدنية ؛ ولهذا الأمر أسباب ، أهمها فلة الأمراض فى

هذه الأمة ، لأنهم من جهة يعتنون بأمر نظافة الأبدان والملابس ، إذ من عاداتهم أن يغتسل واحد منهم ثلاث مرات بالنهار ومرتين بالليل ، فمثلهم كالمعتقين منكم معشر المسلمين ، الذين يتوضئون خمس مرات في اليوم ؛ ومن جهة أخرى لأنهم في الغالب رجال عمل ونهوض وحركة ؛ وإذا كان النشاط في الطباع ، سلمت الجسوم من الأوجاع ؛ وبديهي أن توسيع العلوم يكون بقدر الحاجة إليها ، فإذا عظمت عظم الاشتغال بها ، وكثر الاختراع فيها ، وإذا قلت قلت ؛ وأكبر برهان على ذلك ما أشرت إليه من بلوغنا الدرجة القصوى في التحنيط والتصبير ، فلولا اعتقاد الأفراد أن الأجسام بعد الموت مقدسة لا ينبغي أن يصل إليها الفساد ، لما اجتهد الأطباء المختصون بهذا الفن فيما يمارسون من جليله وحقيقه ، حتى بلغوا فيه إلى درجة الإعجاز ، منساقين

برغبة الكافة ، ملبّين منادى الحاجة العاقة : وما يقال عن التحنيط يقال كذلك عن فن العمارة والإنشاء ، فليس السبب فى رقيّه بيننا هذا الرقى المعجز الباهر ، إلا مبالغة المصريين منذ القدم فى قيمة الآلهة وتصوّرهم إياهم فى منتهى العظمة المؤبّدة الأزلية ، فلا يرفعون لهم من الهياكل إلا ما يليق بمقامهم هذا ويسكنونه إلى الأبد ؛ على أنك لو قست دور الأهل من جميع الطبقات ، وما رأيتها عليه من البساطة والاقتصاد فى البناء - بالهياكل وما شهدت من نفامتها ، واجتليت من زخارفها . لعلمت أن دعواى مبرهنة من نفسها ، ولأيقنت أن قصور المصريين فى الطب لم يكن عن جهل وقلة ذكاء ، لكن عن عدم حاجة ماسة وقلة اعتناء .

قلت : صدق مولاي وأفاد ، لكن هذا ميدان الملك ،
فأين قصره ؟

قال : تظل تحلم بالملك ! وقد أذكرتني أن لي كلبه أقولها
لصائغه الخاص بأمر جلالته ، فنبداً به الآن .
قلت : الأمر إليك يا مولاي .

فمشى السر وأنا فوق كنفه ، حتى مرَّ بخانوت ضيق
المدخل ، زرى المنظر ، فرأيتهم بالولوج فقلت : لعلك
ضال يا مولاي ؛ فمثل هذا الخانوت لا يكون لصائغ الملك !
قال : بل الضال أنت يا كثير العجلة !

فخرست ؛ ودخل الأستاذ ، خفَّ لاستقباله رجلان :
كهل و غلام ؛ وكانا ساعة دخولنا متقابلين على مَنَصَّة للعمل ،
مكبيين على الذهب يفرغاه ثم يصوغانه ، فخيَّاه حق تحيته ،
ثم عادا إلى العمل وأخذا بما كانا فيه ؛ وعندئذ قال الرجل
للأستاذ : أتأذن يا مولاي أن أتم حديثي مع هذا الغلام ،
ثم أتلقى أوامرك ؟ فأجابه : افعل ، فلا تذكره أن نشاظره

الفائدة . فاندفع الرجل يقول : اعلم يا بني أن الأمانة رأس مال التاجر ، وهى والإتقان كلاهما رأس مال الصانع ، وقد صيرُهما إلى عادة منذ مارست هذه الصناعة ، فلم أكلف عملاً إلا استجمعت قواى لتجويده وإحكامه ، وفكرت فى إتقانه قبل الفكر فى إتمامه ؛ فإن بدا نقص بعد ذلك برأتُ نفسى وقلت : على بذل الجهد وليس على أخذُ المستحيل ؛ وكنت فى بدء تعاطى هذه الحرفة مساعداً لمحِبِّ الحقيقة أستاذى الذى انتقل إلى الدور الأبدية ، فعملت منه محبة العمل والإخلاص فيه وبذل الجهد فى إتقانه ؛ وهو الذى ذهب تابوت الملك سبتي والد جلالة الملك ، ونقشه فأبدع نقشه ، وكان أجره عن ذلك مائة قلادة من الذهب ، خرجت إليه من الخزائن السلطانية ؛ فهنأته يومئذ بما نال من جسيم الربح ، فكان جوابه لى : اعلم أنه لو عرضت على خزائن

الملك جمعاء وأنا في العمل أصنع التابوت ، لما أعرتها نظرا ؛
لأنى رجوت أن يقال : ملك الصناعة ، شرّفها يوم موت
ملك الجماعة ! فوعيت هذه النصيحة كما يوعى الوحى الآتى
من جانب الآلهة ؛ وها أنا أبذلها لك كما بُذلت لى
من قبلُ فكانت أصل سعادتي ، وسرّ نجاحي ، والسبب
فى تحصيل هذه الثروة الجسيمة ، وارتقائى فى القصر هذه
المنزلة العظيمة .

قال الهدهد :

وكان الرجل يقدم النصائح لتلميذه وكأنها قلائد يصوغها ،
وبتاءور يتشاب ويتمطى ؛ فخشيت أن يحول بنومه للمعهود ،
دون سماعى مقالة الصائغ إلى آخرها ؛ فكان ما خفت أن
يكون ، وغلب على النسر النعاس ؛ فقال لى بلسان متلعم :
إذا جاء الليل نامت الشياطين ، فارجع إلى عشك الآن

والقنى غداً في هذا الخانوت .

قال الهدهد :

فلم يكن إلا إغماءه ، حتى رأيت نفسى فوق سطح بيت
العمدة في ميت رهينة ، فاستعدت بالله ، وأقلعت من فوري
للطيران ، أوّمْ عشى في حلوان .

المحادثة الرابعة

قال الهدد :

وكان الغد ، فأصبحت فيما أمسيت فيه ، أهفو إلى السر
ولا أعطى عنه صبرا ، والنفس إلى ما يشغلها شيقمة ولعة ؛
فما زلت رهن أحوال ، وجارَ عيش وأشغال ، حتى زُيِّت
السماء الدنيا بالآصال ؛ وإذا أنا من جُوجوى في سفينة عند
دأماء ، وهي تجرى في بحرٍ ولا ماء ، من مذاهب السماء ؛
دقتها ريشتان ، وشراعها جناحان ؛ فاستوت على ما وراء
النهر ، ولمني لفي الحانوت كأن لم أبرحه ، أراني فوق كتف
السر ، أنظر إلى الصائغ والغلام ، وكأن مامر فترة من حلم ؛
إذ الحديث متصل ، والصائغ يقول : هذا يا بنيَّ صاحبُ
الملك وشاعره ، وبوقه في الغزاة ، وظلُّه في النقلة ، وداعيه

في الأمة ، وآية ملكه في الأولين ، وحديثه من بعده في الآخرين ، أوفده حفيد السموات ، وشعاع الشمس في الجماعات ، برسالة عملتُ بها قبل أن تبلغ إلى .

ثم التفت إلى بختيار وسأله قائلاً : أليس أمر الملك يامولاي أن تُنقش على القلائد الثلاث صورُهُ الثلاث : يوم قدم طيبة ظافراً ، ويوم صلى صلاة الظهر في هيكلها ، ويوم المهرجان ؛ وكانت إشارته السابقة أن تتضمن الصور الثلاث حملته على الأعداء في آتيش ، ودخوله المدينة فاتحاً ، وجلسه للمسكها ومُترفيها يأتونه أذلة صاغرين ؟

قال : في هذا جنت ؛ فلعل لإنسانا جاءك به قبلي .

فتبسم الصائغ حينئذ وقال : إنه ليس لإنسانا ، إنه الملك بذاته ، أشرق هذا الحانوتُ بنوره ، وكأني به قائم عند رأسي يقول : اصنع كيت ، وافعل كيت ، وأنا جالس كما أنا الآن ،

أحدثه كما أحدثك ؛ ثم مشى تظللّه السماء ، وتحرسه عين ذكاه .
قال الهدهد :

فدهشت مما سمعت ، وودت لو كنت حاضراً في تلك
الساعة ، أرى الملك وأسمع حديثه ؛ وتحسّر الغلامُ كذلك
وسأل أستاذه قائلاً : وأين كنت يا هولاى عند ما تقدّس
هذا المكان بالملك ؟ قال : كنت في إصباحك لم تغدُ بعدُ إلى
العمل فلم أشأ أن يُخجلك أن تعلم أن ملك الملوك سيقك إلى
حانوتٍ أنت فيه صبيّ تتعلم صناعة !

فخرس الغلام وتلون ألواناً من الخجل !
ثم قال الصائغ يخاطب الأستاذ : ليس العجب يا هولاى
أن يسعى الملك إلى عبده ، فإن دأبه الأخذ بيد العاملين ،
فكيف بعباده المخلصين أمثالي ؟ على أن كبار الملوك
يتذكرون لأخذ الحكمة التي لا تنفذ على الملوك حجابهم ،

وطلب الحقيقة التي لا تلج عليهم أبوابهم ، كما يتنكر صغارهم
ليزدادوا من الصغائر ؛ لكن العجب كل العجب أن يلفيني
الملك قد أغيت العمل بأمره الأول قبل أن ينقضه ، وعملت
بما جاء من أجله قبل أن أعلم به : أمهلته ريثما تكلم وأشار
وأمر ، ثم كشفت عن القلائد بين عينيه ؛ فاستغرب الأمر
وسأل عن السبب ، فقلت له : القلائد يا مولاي لملك
الصغرى ، وهي بنت ملك آنيش الذي كان عزيزاً فأذلتته ،
وملكاً فاستعملته ثم صاهرتة ، وأنت تحبها وتفضلها في هوى
القلب على سائر نسائك ، ولحبل من مسد تجعله في جيد ما ،
أحب إليها من قلائدك التي تذكرها فشل قومها وذل أبيها .
فسر الملك بما قلت له ، وأقرني على ما أخذت به من
العمل ، وقال : خالق الغرور للملك ، وقد يبلغ بنا معشر الموك
حتى نسيء إلى أعز الناس علينا ونحن نحسب أننا نحسن إليه .

قال المدهد :

ثم ودع الأستاذ الصائغ وخرجنا وأنا أقضى العجب
مما سمعت ورأيت ولا أستطيع مع الأستاذ صبرا ، فلما
صار وحده قلت : حفظتُ أشياء وغاب عني شيء واحد
يامولاي . قال : وما ذاك ؟ قلت : إنفاذ الملك إياك في أمر
سبقته به كلمته للصائغ ! فتبسم ثم قال : هذا من تأديب
رئيس صحابته لكيلا يطنخوا ؛ يُعلننا أن له جسداً وقدمين
ولساناً وعينين ، وأن بين غمر العامة ولفيف الخاصة ممن
لا يحوزهم مجلسه ، من يليق أن يسعى الملوك إليه ويأخذوا
الحكمة عنه ! قلت : تظل تشوقني إليه ، فهل أنى أن أراه
أم لم يئن يامولاي ؟ قال : لكل شيء ميقات ، وليس هذا
وقت رؤية الملك ، فاصبر معي أو انقلب إلى عشك جاهلاً
محروماً ! فاستعنت الله علي الأستاذ في نفسي ، ولذت

بالصبر في أمرى .

وطفق يحوب بي الطرق ، ويجول في الأزقة ، حتى
خرجنا إلى بناء رفيع ، فوق طريق وسيع . فقصده الأستاذ
قصده ، فسأله : ماهذه الدار يا مولاي ؟ ولمن ؟ قال : هذه
يا بني شمس النهار ، ومشرق الأنوار ، ومهيطة الحكمة
والأسرار ، ونقطة تلاقي العقول الكبار : دار الأدب
والفلسفة ، أسستها على مثال الدار الكبرى في طيبة ، وكنا
أربعة ، فلم يمض علينا عشرون عاما حتى نمت ورَبَتْ ،
ونجحت ورقت ، وأصبحت من تعدد الأساتذة وتكاثر
الطلاب وتهافت المستفيدين من الأجانب علماء وفلاسفة ،
بحيث تضارع أختها في طيبة ، ويميزها أن ليس للملك ولا
لحكومته ولا للمكة يد في التأسيس ، ولا سبيل على
التدريس ، وأنها غراس الأفراد وإحدى مهمهم : فانظر

إلى الكثير كيف يأتي من القليل . ومن ميمون أمر هذه
الدار أن وزير الخزانة السلطانية لما سمع بها وزارها وهي
في أيامها الأولى ، كتب لها صكاً بربع ثروته الواسعة ،
تستوفي ذلك في حياته وبعد مماته ؛ ثم مات وانتقلت روحه
الكريمة إلى المغرب ^(١) ، وكان قد أدخل ولديه فيها ، فلا
ورأس الملك يابني ، مارأيت أنجب منهما ، ولا أحب للعلم ،
ولا أصبر على تحصيله ، ولا أطلب للغايات فيه ؛ إذا ذكر
فتيان المملكة في مجلس صاحبها سماهما وأثنى عليهما ، وسمع
ثناء الناس فيهما ؛ فليت أباهما يُردّ إلى الحياة لينظر كيف
تجزى العناية المحسنين ، وتجعل عماد بيوتهم من بعدهم البنين ؛
قلت : سعاداء أتم معشر الآباء ؛ انفق أربعة منكم

(١) كانوا يعتقدون أن الروح بعد مفارقة البدن تذهب إلى
حيث تغرب الشمس .

ولن يتفق اثنان منا ، وبذل أحدكم ربع ماله في البر ولن
ينفق أحدهما دخل عام واحد في صالح الأعمال ؛ ونحن الذين
قال بعضهم فينا « اتفقوا على أن لا يتفقوا ^(١) » .

فأحفظت عبارتي الأستاذ ، وقال : ما هذا السم في الدسم !
ومن ذاك الذي يثبط الهمم ! هذا ومثله أيها الهدهد من
الأوهام ، وإنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس
فتقتلها . الأوهام داء الأعمى ، ومنيّة الشعوب ؛ إذا تمكنت
من قوم كانت كالفاس في الأساس ، وكالنار في الشعار ،
وكالحبل في الخناق ، وكالعلة في القلب ، لا يخفق معها إلا إلى
حين . ومن تبالغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر تبالغ هذا
الداء فيه ؛ حكوماته دواليب تدور بالأوهام ، وبلدانه مملوءة
ما بين السماكين من الأوهام ، وأمه تروح وتغدو حيث

(١) تنسب هذه الكلمة إلى السيد جمال الدين الافغانى .

تجعلها الأوهام . نظر الواحد منهم في الأمور عرضاً وبعين
غيره ، وحكمه فيها عن الهوى ، وانقياده في إيرادها
وإصدارها بأزمة الأوهام . قال لكم رجل قولا فوهمتم فمُتّم
أحياء . ليس مع السلوة عيش ، ولا مع القنوط عمل ، ولا
مع اليأس حياة ؛ وليس أجلب للشر والضرّ من الدعوة إلى
الربوض ، وتوهين العزائم ، وإمالة القلوب ، وإخراج
النفوس من الرجاء إلى اليأس الذي هو الموت في أشنع
صوره وأقبح أحواله .

قلت : الأوهام يا مولاي داء الأمم منذ القدم ، لم تخلُ
منها أمة خالية ، وإن تخلو منها أمة آتية ؛ فما بالك تُنلزمها
فريقاً دون فريق ، وتنكرها على قوم ولا تنكرها
على آخرين ؟

قال : خلق الإنسان من ضعف ، فكان الوهم أول دين

دان به ، وأول حكومة دان لها ، وأول شيطان سكن إليه .
كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ويتخذ منها آلهة
يسجد لها ، ولا يزال آخر الدهر يتوجه إليها بالتأليه
والتقديس والتنزيه ؛ وإذا عبد الله كما تعبدونه أتم والنصارى
واليهود ، كان لله الشطر من تلك العبادة وللأوهام الشطر ؛
فالمسيحي يُبلى الحديد في كنيسة القديس بطرس بروما استلاما
وتقبيلًا ، كما يضع المسلم خده في عتب الأضرحة بالقاهرة
تمسحاً وتأميلاً وتعظيماً وتبجيلاً . وكان في شبيبة الدهر يؤلّه
الجبابرة من البشر أمثاله ، ويحكمهم في عرضه ودمه وماله ؛
ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عباداً للملوك يأتونهم
طائعين ، غرهم التاج ، وخذعهم العرش ، وغشّهم الحجاب ،
وضللهم الاستبداد ؛ فالسلطان في الأصل للوهم لا للسلطين ،
وحقيقة الطاعة له لا للمالكين . وكان الوهم أول شيطان

سكن إليه الإنسان ، تولد منه يقينه ، ونشأ عنه عليه ،
وجرت عليه أموره ، وانبنى عليه حكمه ، وتألف منه مألوف
عادانه ، يحس به ويشعر ، ويسمع به ويبصر ، ويعجز به
ويقدر ، وبه يعيش وعليه يموت . خلت آلاف من السنين ،
وحافر البغل في مصر حافر البغل فيها ، يمسح في وهم بعض
الناس من بعض العلل ، ويشقى من بعض الأمراض .
ومضت مئات من القرون والميت في مصر يحنّز آخر الدهر
كما كان يحنّز أوله ؛ فلورفع الصليب من جنازة قبطية ،
وصين القرآن عن أن يرتله الهممل في جنازة مسلمة ،
لخيل لك أنها جنازة ميت منا معشر القدماء : رسوم
احتفال ، وقربان ، وأكل ، وحشو تراب ، وشق جيوب ،
وولولة نساء ، وعويل عبيد ولما ، وندب الميت ونعته
بكيت وكيت ؛ والاهوام يا بني كما قلت لا تخلو منها الأمم

الكبيرة والشعوب الحية ، إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة
لا تجاوزها إلى الخاصة ، إلا ما ندر ؛ كما أنها تتملك الأمم
الصغيرة والشعوب المنحطة ، فيكون للخاصة منها مثلُ حظ
العامة ؛ وهنا عظيم البلوى ، ومنتهى نكد الدنيا . أليس من
الوهم القاتل للأنفس ، المميت للقلوب ، أن يصح في أذهان
خاصة المصريين من أمراء وعظماء ، وأدباء وعلماء ، أنهم أمة
ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى في أمرهم صلاح ؛ وأن اتفاقهم
سابع الجهات ، ورابع المستحيلات ؛ وأن الوطن ميت
وأنهم ميتون ، وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التي
لا تنطبق على نوااميس الوجود ولا تترد إلى أحوال البشر
وحوادث التاريخ . الأمم يا بني لا تموت ، ولئن بدت عليها
دلائل الموت في أزمنة الاضمحلال فما تلك إلا بوَسَى
تزول ، وحال ستحول . الأمة تصح ثم تعتل ثم تصح ؛

تجدد من حيث تبلي ، وتقوم من حيث تسقط ، وتصح بالعلل . هذه اليابان ، هل كان في حسابان أحد أن تضم صوتها يوماً ما إلى أصوات دول الغرب في مسألة من أكبر مسائل العصر ، وتطمع مع الممالك الطامعة ، وتسير الجيوش في البر ، وتخرج الأساطيل في البحر ؛ وقد كانت وأنت في زمن الدراسة لا يُذكر اسمها إلا مقرونا باسم الصين ، عنوان الهمجية ، ومثال التوحش ، والمشبّه به إذا ذكر التأخر والانحطاط ^(١) . وعرض على المسيو تيرس الوزير الفرنسي المشهور ، مشروع يُراد به إنشاء السكة الحديدية في فرنسا ، فسخر منه علانية في المجلس ، وعده ضرباً من الهذيان ؛ ثم لم يمض نصف قرن على ذلك حتى أصبحت

(١) أنشأ شوقي - رحمه الله - هذا الكتاب في أول هذا

القرن ؛ وكانت حال اليابان والصين على ما وصف .

سكك الحديد في فرنسا تُنكأثر الأنعام . وقارن المؤرخُ
فولنيه - الشهير بأسفاره الطويلة في الشرق وكتبه الجلية عنه -
بين القاهرة وباريز على عهده ، فذهب إلى أن عدد أهالي
القريتين واحد ، وأنهما كلتيهما تُضاءان بالسُرج وزيت
الزيتون ، وتُحصَّنان من الخارج بالأسوار ، ومن الداخل
بالأبواب ، وأن الإنسان لا يخرج فيهما بعد ساعة معلومة
من الليل ، إلى غير ذلك من شبه التأخر ومخايل الانحطاط .
وفولنيه هذا قدم القاهرة في أيام المماليك ^(١) ، وكتب
ما كتب عنها في القرن الثامن عشر ؛ فانظر كيف تبدلت
الأمور ، وتحولت الأحوال ، وأصبحت باريز كما عهدت
عروس عواصم الغرب ، تعتاض كل يوم عن ضوء بضوء ،

(٢) إنما كانت قدوم فولنيه إلى القاهرة في عصر الحكم
التركي العثماني !

وتبدل حصوناً بحصون ، وتذهب مخترعات وتأتى مخترعات ،
وتخرج المدينة من أبوابها ، وتمتد إلى ما وراء أسوارها ، من
تكاثر الأعمال ، وتزاحم العمال ، على كثرة ما أصابها بعد
فولنيه من مصائب الدهر ونوائبه ، فكم هول ثورة لاقى ،
ونار حرب ذاقت ، وخرابٍ إليه انسأقت ؛ وكم حكومةٍ
قلبت ، ودولةٍ غيبت ، وملكٍ قتل ، وقيصر عزلت ؛
كل ذلك فى قرن ونصف قرن ؛ ثم كانت النتيجة خروجها
من دجنة هذه الحوادث سافرة زاهرة ، عظيمة فاخرة ؛
فلو أن أهلها دُعوا إلى اليأس فلبوا ، وقال لهم عقلاؤهم
موتوا أحياء فسمعوا ، لكانت النتيجة بقاءها كما وصفها
فولنيه أو أضيق حلقة أو أشد انحطاطا . من هذا ومثله تعلم
يا بنى أن العلم والبيان خلقتا ليكونا حرب الأوهام ، ونورا
يخرج إليه الأمم من الظلمات ، وأن حاملهما مطالب بالعمل

والدعوة إلى العمل حتى النفس الأخير من الحياة ؛ فمن ثَبَطَ
هممكم من علمائكم وعظماؤكم ، فالوُوا الوجوه عنه ، وانفروا
بالإسماع منه ؛ ومن دعاكم إلى حياة فذلك داعي الخير ،
فاستمعوا له وأنصتوا .

قال الهدهد :

فما استتم السر حتى مُلئت حياة وأملا وثقة من
المستقبل الذي أعتقد أنه بيد الله ، إذا شاء صد عنه وإذا
شاء أقام فيه .

وكان للأستاذ درس يلقيه على الطلبة ، فأدرك أن الوقت
سرق بعضه بعضا ، وأن حديثه معي كان السبب في ذلك ؛
فغضب في نفسه ، وهرب حتى دخل القاعة الكبرى ،
وهناك خفَّ مئات الطلبة له إجلالا ، ثم انحنوا إكبارا ؛
وكان ملل الانتظار تبدو دلائله على وجوههم ، فتأملتهم وأنا

لا أصدق حتى فيما أنظر وأسمع ، فإذا هم جميعا مُرَدُّ
أو كالمرد ، لأن من عادتهم إزالة شعر الوجه كما قدمنا ،
وعليهم أردية صافية من الكتان الأبيض .

ثم تصدّر الأستاذ للتدريس كأنه الملك على عرشه ،
فغلب على السرور ، وقلت في نفسي : الآن نلت من السعادة
مالم ينله أحد ، لكني ما تأهبت للسمع ، حتى تشابب الدر
وغشيته السنة المعهودة ، فالتفت إلى يقول بلسان يعقده
النعاس : إذا جاء الليل ذهب الشياطين ، وموعدنا غداً
هذا المكان !

فاستعذت بالله وخرجت من أحلامي ، وإذا أنا
في وكري بجلوان .

المحادثة الخامسة

قال الهدد :

كان الغد ، وجاء الأصيل ، وآن الموعد ؛ فأعملت جناحي
أستقبل منفيس ، فلما وصلتها ، قصدت دار العلم والفلسفة
فيها فدخلتها ، فرأيت الطلبة يخرجون من الدرس ، وكانوا
يستعدون له بالأمس ، وقد أحاطت عصبية منهم بالسر
يماشونه ويلقون عليه الأسئلة شتى ، ويأخذون من بحر علمه
وروضة نيانه ، فأشرفت على حلقتهم أخطف السمع ، فسمعت
أحدهم يقول للأستاذ : ما هي الفضيلة يا مولاي ؟ قال : ترك
الرذيلة . قال : وما الرذيلة ؟ قال : هي جاران في دار الجهل ،
والبطالة في الشباب .

وسأله آخر : علمتنا يا مولاي أن الراحة والسعادة كليهما

في العمل ، فدأني على عمل ألتسهما فيه . قال : ابن مَن أنت ؟
قال : ابن نجَّار في المدينة . قال : عليك بمشار أيبك ، فإن
فيه الراحة والسعادة .

وسأله ثالث : بماذا تشقى هذه البلاد وبماذا تسعد
يامولاي ؟ قال : بالنيل والثور والمحراث .

وألقي عليه رابع هذا السؤال : مَن العالم يامولاي ومَن
الحكيم ومَن الطبيب ؟ قال : العالم من لا ينام ، والحكيم
من لا يطعم ، والطبيب من لا يموت ! قال : هذا هو المستحيل
يامولاي ؛ فما تريد بهذه المبالغة ؟ قال : أردت أن العالم من
عَلِمَ بالنهار وتعلم بالليل ، والحكيم من زهد في هذه الدنيا
وقنع منها بكسرة ، والطبيب من ترك طباً يعيش به الناس
بعد موته .

وسأله تليذ آخر : ما هي الفلسفة يامولاي ؟ قال :

هي احتقار الدنيا ، ورحمة الناس . قال : وما فضلها ؟ قال
تحول دون الهوى والغضب ، وكلا هذين مذلة . قال :
وكيف تؤخذ يا مولاي ؟ قال توجد في الطباع ، ولا تؤخذ
من الرقاع .

قال المدهد : ثم أشار النسر إلى الطلبة أن ينفضوا من
حوله ، ففعلوا إلا اثنين من خاصة تلاميذه ، ظالا يماشيانه
وأنا أطير حيث يسرون ، حتى أخذوا إلى المدينة ؛ وعندئذ
وقعت فصرت فوق كتف الأستاذ ، فلم يقف ولم يلتفت ،
لكن سمعته يقول لصاحبه : من فاته درسي لا تفوته صحبتي ،
ومن صحبتي فليصبر معي ؛ ليس للعلم وطن ، ولا للحكمة
دار ، بل العاقل من له على كل أرض مدرسة ، وعلى كل
طريق أستاذ ؛ المدرسة تقيم العقل في طريق العلم ولا تتكفل
بوصوله ، كالمعبد : يمد السريرة في الاعتقاد ولا يتكفل لها

بكشف الغطاء ؛ فرب عابد من نفسه وصل ، ومثعلم من
نفسه حصل ؛ عرفت صنوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها
المرء من نفسه ، ثم من حيث التفت فرأى ، وكلما قيل له فسمع ؛
من حديث المتكلم إن صدقا وإن كذبا . وصموت الصامت
إن بكامة وإن بكما ، ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية
المستكبر وهذيان المهوس وعريضة السكران ، ومن النمل في
مشاغلها ، والنحل في معاملها ، والذر في مُستثاره ، والبرق
في مستطاره ، والزهر لإقباله وإدباره ، والفلك ليله ونهاره ،
والبحر مضطربه وقراره ؛ ومن النفس إذا اعتلت وإذا صحّت ،
وإذا طمعت وإذا قنعت ، وإذا رغبت وإذا تسلّت ، وإذا
جشأت وإذا اطمأنت ، وإذا شكرت وإذا جحدت ؛ ومن الطباع
إذا امتحنّت ، والسرائر إذا بُليت ، والآهواء إذا اختبرت .
مدارس لا يفرغ اللبيب منها ، ودروس لا يصبر الحكيم عنها .

قال المدهد : ففهمت أن الدرر يعتذر ، وأنه ينهى عن الكلام ويأمر بالسكوت ؛ فامتثلت ولم أنبس .
ثم سرنا ، فمررنا في طريقنا على دار تشيد ويبالغ فيها ويوشك بنائها أن يتم من زحمة الأيدي عليه ؛ وكان ربها عندها بين غلبانه وأعوانه ؛ وكان الأستاذ يعرفه ، فاقترب منه وحياه ، فرد التحية ؛ فخاطبه الدرر قائلاً : لمن هذا القبر أيها السيد ؟ قال : هذا قصر يامولاي لا قبر ! قال : وجدنا آباءنا يؤبدون القبور لا الدور ، لأنهم مواطن الفرار ، ومنازلنا جميعا معاشر السفار ؛ فعلام تظلم سدتهم ، ولا تسير في الحكمة سيرتهم ؟ قال : إني واهبها للملك ، ولا يوهب له إلا ما يليق به . قال : إن الملك في غوة عن مثلها ، ولو كان ممن يطمحون إلى ما تملك أيدي الرعايا ، أو يفرحون بما يزلف لهم من ثمين الهدايا ، لما ساد الأمم ، ولا اعتز

ولا احتكم : إنه ليحىء إليه من أقاصى البلاد ، ويدخل في
خزائنه من كرائم المال ، ما لو جُمِلَ بعضُه فوق بعض
لطاول الجبال ؛ وإنه لأحرى بك أيها السيد ، أن تهدم هذا
الصرح من أساسه ، ثم تجود على كل فقير في وادى النيل
يتضور جوعا بطوبة من أنقاضه ، يشدّ بها على لحم بطنه
لتخفف عنه من ألم الجوع !

ثم ودعه وسار ، فما زلنا نذهب في المذاهب والنسر
دليلنا ، حتى انتهينا إلى دار حقيرة البنيان ، عندها صبيان
يلعبان ، فقصد الأستاذ قصدهما ، ودعاهما إليه ، وقبلهما فوق
جديئهما ؛ ثم قال يخاطبهما وعيناه تفيضان من الدمع : كان
أبوكم رجل صدق ؛ وكان وفيا ؛ فلتجزئنه السماء فيسكا ،
ولتباركن فيسكا لأملكما ! ثم التفت إلى صاحبيه وقال :
ألا أنبئكما من مالك هذا البيت الزرى ؟ قالا : بلى . قال :

ذاك الذى يبنى قصرا ليهديه إلى الملك ، وهو لا يسامح تلك الأرملة
ولا هذين اليتيمين فى أجرة شهر واحد ؛ فما أظلمه وما أظلم
الملك يوم يقبل هديته ، وما أظلم الحياة وما أظلم الناس !
ثم ودعهما الأستاذ ، وانطلق يمشى ونحن نتبعه ، حتى
دخل فى طريق ضيقة ، فاندفع فيها حتى أتى عليها ، وكان فى
آخرها منزل ، فوقف به ثم دق الباب ، فخرج إليه رجل
وقور ، يدل تجعيد وجهه على تقدم ميلاده ، فحياه النسب ،
فرد التحية ، فسأله ما صنع الملك باليتيمين وأمهما ؟ قال :
رأف بهم وأمر أن يُجَرَى لهم رزق من الخزانة السلطانية .
قال : خيراً فعل ، والخير سجية فيه ؛ فعد إلى أهلك فقد
اطمأن قلبي .
ثم تركه واستمر فى مسيره ، والفتيان يمشيان ، وقد سأله
أحدهما : مَنْ الرجل يا مولاي ؟ قال : الملك جواسيس

يتخذهم ، لا على رعيته ، ولا على صحابته ، لكن على المتعففين
من الفقراء ، وعلى الأرامل والأيتام ، يدلونه عليهم لينظر
في أمرهم ؛ وهذا الرجل من أدلاء الملك على الخير ، ولا
أجر له على ذلك غير رضى نفسه ، وطلب الهدوء لها في رmse .
هذا ما يفعله رمسيس ، ومُلك الدنيا له ، وأمر تدبيرها
بيده ، مبارك له في الآل والحال ، والرعية والسلطان ؛
وليأتين يوم يتخذ الملوك جواسيس على الأرملة واليتيم ،
ليسلبوهما شبر أرض ، أو جدار منزل ؛ فأولئك ملكهم
في دمار ، وتاريخهم في سجل من عار !
ثم عطف الأستاذ على حانة خمار فدخل ، فتخلف
الفتيان ، فأبى إلا أن يتبعاه ؛ وهناك جلسنا في ناحية ،
وطلب النسر شيئاً من الخمر له ولتلميذه ، وكان إزاءنا ثلاثة
فتيان ترى عليهم دلائل النسب والحسب ، وكأنما عرفوا

الاستاذ، فاحتال أحدهم حتى تسلل وانصرف ، وتحول الثانى
إلى زاوية فانكش فيها ، ولبث الثالث كما وجدناه ثابتا
لا يتحرك ؛ فالتفت الفسر إلى أحد الصاحبين وسأله قائلا :
أعرفت هؤلاء يا بنى ؟ قال : هم يا مولاي بنو صديقك
القائد فلان . قال : هم بعينهم ، يترددون إلى هذا المكان ،
وقد علم والدعم بذلك ، فتشبت بى أن أتداركهم بالنصح
والخبر فى رِقَمهم قبل أن يصبحوا فى رِقَمها ؛ فكيف وجدتهم
يا بنى ؟ قال : أما الأول يا مولاي فينججل من نفسه ، وأما
هذا المنكش المستتر فينججل من الناس ، وأما هذا الثالث
المتهتك فلا ينججل من نفسه ولا من الناس ! قال : أصبت
يا بنى . ثم أقبل على رفيقه وسأله : وكيف رأيك فيهم أنت
يا بنى ؟ قال : أرى يا مولاي أن يوكل الأول لنفسه ، لأنها
سوف تزجره ؛ وأن يُنصَح للثانى ، لأن المقالة تنجح فيه ،

وَأَنْ يُنْعَى هَذَا الثَّالِثُ إِلَى أَبِيهِ ! فَضَحِكَ الْأَسْتَاذُ مِنْ جَوَابِهِ ،
وَحَكَّمَ بِصَوَابِهِ ؛ ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ذَلِكَ الْفَتَى الْمُنْكَشَشِ ، وَفَادَاهُ :
مَالِكُ يَا بَنَ الْأَخِ لَا تَسْكُونُ رَابِعَنَا ؟ قَالَ : إِنْ أَدْنَى مَوْلَايَ
فَعَلْتُ . ثُمَّ خَفَ إِلَيْنَا بَجِلَسٍ مَعْنَا ، خِيَاهُ الْأَسْتَاذَ وَلَا طَفْهُ ،
ثُمَّ خَاطَبَهُ فَقَالَ : مَا أَطْيَبَ الْخَزْرِيَا بَنِي ! قَالَ : أَطْيَبَ مِنْهَا
يَا مَوْلَايَ هَذَا الشَّاءُ عَلَيْهَا مِنْكَ . قَالَ : كَيْفَ تَجِدُهَا ؟ قَالَ :
فِيهَا لَطْفٌ وَهِيَ مُحَرَّقَةٌ . قَالَ : كَذَلِكَ الشَّرَارَةُ : تَجِدُهَا لَطِيفَةً
الْمُتَّقَدَ ، وَقَدْ تُضْرَمُ نَارًا عَلَى بَلَدٍ ! قَالَ : وَإِنَّمَا لَتَدْبُ خَفِيَّةً
ضَعِيفَةً ، ثُمَّ تَتِمَكَّنُ ظَاهِرَةٌ قَوِيَّةٌ . قَالَ : وَهَكَذَا الدَّاءُ ! قَالَ :
وَلِإِنْ الْجِسْمَ لَيْسْتَ رِيحَ مَعَهَا ، وَتَخْرُجُ النَّفْسُ بِهَا مِنْ عَالَمِ الْهَوَمِ
إِلَى عَالَمِ مَوْهُومٍ . قَالَ : خَيْرٌ لِشَارِبِهَا إِذْنُ أَنْ يَنْتَحِرَ ، فَالرَّاحَةُ
كُلُّ الرَّاحَةِ فِي الْمَوْتِ ! قَالَ : وَإِنَّمَا يَا مَوْلَايَ لِعَادَةِ ، وَالنَّفْسُ
بِمَا اعْتَادَتْ مِنْقَادَةً ! قَالَ : الْآنَ صَرَحْتُ ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بَدَ

نخذ منها لطربك ، ولا تعطها من عقلك وأدبك ، واتخذ منها
صحة ولا تتخذ منها مرضا ، واشربها مع حكيم يقول لها قفى ،
وخذها فى مجالس الكرام ، فهناك أوائلها طرب ، وعواقبها
أدب . قال : ألتى يا مولاي فنجحت ، ولو ألححت لما
أفدحت ، فلا يكونن إلا مانصحت . قال : بقيت يابنى فى النفس
حاجة : إن أباك أشفق من السفهاء أن يمدوك وأخويك
فى الغنى ، فسلطنى عليكم ؛ فأما ذاك الذى استحميا فله نفس
تزجره ، وهى حسبه ؛ وأما أنت فقد رأيت من عقلك
ما يطمئن به قلبى ؛ وأما هذا الذى يشربها جهرا ، ويلحظ
اللائمين فيها شرا ، فالحيلة فيه قليلة ، والنصيحة معه مستحيلة ؛
فإذا لقيت أباك فثب من تلقاء نفسك إليه ، واكفى شبهة المن
عليه ، بهداية ولديه . قال : أمرت ممتثلا يا مولاي . فودعه
الأستاذ ونهض وصاحبه على أثره .

قال الهدهد :

فلما خرجنا من الحانة ، رأينا الناس يزدهون على بابها ،
والتفتُ إلى اللسر فرأيت الغيظ على وجهه ، وسمعته يقول
لصاحبيه : ما أولع الناس بالناس ، يشتغل أحدهم بشئون
أخيه ، وفي أيسر شأنه ما يُباهيه ! علم الملائكة أن بتناءور دخل
في هذه الحانة ، فاجتمعوا ينظرون كيف خروجه : فلاستقبلن
جمعهم ، ولاخطبن فيهم . ثم فعل فقال : أيها الناس ، الماس
فوق التراب ماس ، والخزف خزف ولو حمل على الرأس ؛
أما والآلهة في معابدهم ، وآباء الملك في مراقدهم ، كُرب
صادر عن هذا المنزل أطهر من خارج من هيكلك أيها الناس ،
من زل منكم فليستتر ، ومن رأى زلة فليستتر . من علم على
أخيه فلينصح له همسا ، ولايرحمه في نفسه ، وليدعُ له في
صلاته . أيها الناس ، ثلاثة تعرض ولا يأمنها أحد أن تُفاجئ :

المرضُ ، والمصيبةُ ، والغوايةُ ؛ وما شكر أحدكم الآلهة على
 الخلاص منها بأفضل من رحمة الواقعين فيها . رأيتم من
 السفاهة والمجانة أن يلج شيخ في هذه الحانة ، فاجتمعتم ،
 ولو عقلتم لما فعلتم ؛ إن للعقل كما للقدم زلة ، وإن للحليم
 كما للجاهل ضلة ، وإن النفس مع الهوى مائلة ، والعاقل من
 إذا مال مع النفس اعتدل . أيها القوم ، إن ملككم لكبير ،
 وإن عدوكم لكثير ، أمركم نافذ في المشرق ، وسيفكم في كل
 مفرق ، وعداكم يسيرون ، وحسادكم يسعون ، فاستبقوا
 نفوسكم وهذبوها ، وحافظوا على أبدانكم وربوها ،
 وأعدوها ليوم تدعوكم الأوطان لتقربوها لا تعطوا
 الغواية أزمتكم ، فتسلب منكم ذكاكم وهمتكم ؛ دخل
 الرعاة بلادكم في شبيبة الدهر ، فأفسدوا فيها وجعلوا أعزة
 أهلها أذلة ، وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة ، يأخذون

الفضيلة ويذرون الرذيلة ، صحاح العقول ، صحاح النفوس
صحاح الأبدان ؛ فاستجمعوا في وقت السكون ، ثم وثبوا
في وقت الوثوب ؛ فاستردوا ملكهم بقوة ؛ ويراد منكم أن
تكونوا في الأمن في درع مضاعفة من الفضيلة ، لا تأمنون
الدهر أن يأتي على عجل . يا حاملة السلاح ، لا تقتلكم في السلم
الراح . يا حاملة العلم ، لا تغلبكم الخمر على الحلم . يا معاشر
الصناع ، من كان الوقت رأس ماله ، والصحة سبب رزقه ،
والكسب قوت عياله ، فليهجر الخمر ، فإنها مضيعة الوقت ،
مضرة الصحة ، آفة النشاط .

قال الهدد :

فبينما النسر يتكلم والجمع يسمعون ، برز الخمر له بين
رجلين من الشرطة كان استأجرهما ، فطلبها إلى الأستاذ أن
يمسك عن الكلام ، وألا يذم الخمر في بيتها ، ولا يطعن عليها

في وجهها ؛ ثم أبلغاه أن صاحب الحانة يدعوه إلى المحكمة في اليوم التالي ، ليطالبه أمام القضاة ببذل ما ألم به من الضرر ولحق به من الخسارة ، بسبب هذه الخطبة في هذا الموقف ؛ فامتنع الأستاذ من الكلام كما أشار ، وأجاب بأنه سيوافي المحكمة في الغد ؛ وهناك يكون له وللخمار شأن .

ثم مشينا نخترق الصفوف ، وهي تتنحى للسر وتنحى له في طريقه ، حتى خرجنا من ذلك القسم من المدينة ، ودخلنا في قسم آخر ؛ فقال الأستاذ لصاحبيه : غداً نتبارز أنا والخمر ، ويحكم القضاة بيني وبين التَّجَر . قال أحدهما : قد كان لك يا مولاي غنى عما أتيت ، إنك ظلمت إنساناً من حيث هدَّيت قال : إن الطرق مدارس العامة ، ولا يعلمهم فيها إلا الخطباء ، والرجل يظلم الناس ليل نهار ، ومن ظلم ظالماً فما ظلم ؛ إنى لا أشفق من الخمر على الخاصة ، فإن لهم عقولا

تردّهم أحياناً إلى الاعتدال في أمرهم ، وأشغالا من العيش
وأسباباً من السعة تعينهم على الخمر وتقيهم كثيراً من عواقبها ؛
ولكنني أشفق منها على العامة ، فهي فيهم سلطان جائر ،
يفتك ولا يرحم ؛ وشيطان ثائر ، يسكن الرؤوس فيملؤها
شراً ، ويتملك النفوس فيملؤها خبائث ؛ وإذا هلكت
العامة في أمة فقد هلكت الخاصة .

قال الهدهد :

وبينما أنا مؤتس بجديث السر ، أسمع ولا أمله ، وأتعظ
بجميع ما يأتي ويذر ، وإن لم يخاطبني في هذه المرة ولم أخاطبه ،
إذ قطع الحديث كعادته وتثأب ، فعلمت أن الساعة أتت ،
ثم نظر إليّ وقال كلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهب
الشياطين ، فالقني غداً في المحكمة ، تسمع وتره .

المحادثة السادسة

قال الهدهد :

فلما كان اليوم التالى ، سُمّت من النهار وطوله ، ومن
يُنْتَظَر يسأم ؛ حتى إذا مال ميزانه وأصلت الآفاق ركبتهما إلى
منفيس ، وأنا أنتظر أن يكون لتلك المحاكمة نبأ ، وأرجو
أن أقف على درجة القضاء عند المصريين القدماء ، لعلنى
بأن العدل — كما قيل — أساس الملك ، ولا عدل إلا حيث
القضاء يدور دولابه ، ويؤلاه أربابه ، وتوثق أسبابه ؛ فهو
مرآة الحكومات التى تترامى فيها بما هى عليه من استقامة
أو عوج ، وظلم أو عدل ، وصلاح أو فساد ، وارتقاء
أو انحطاط ؛ وأساس الممالك ، إذا سلم سلمت ، وإذا تهتم

أنهدمت ؛ وعنوان شعور الأمم وتعقلها ، ودرجتها في
العرفان ، ومبالغها من الفضيلة الإنسانية ؛ لأن القوانين التي
تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها ، ليست إلا مجموعة
تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها ؛ ولأن القائمين عليها
بهذه القوانين ليسوا إلا أفراداً من أبنائها ، يبصرون
بغيرها ، ويسمعون بآذانها ، ويشعرون مثل شعورها ،
ويجدون مثل وجدانها ؛ فإذا زكوا زكوا سائر الأمة ، وإذا
خبثوا خبثت الأمة جمعاء .
قال :

فلما احتوتني المدينة ، رأيت الزُّمَر آخذين طريقاً
يتدفقون فيه ، فقلت في نفسي : لعل الزحام من أجل
يلتاءور وقضيته ، وطفقت أطير إلى حيث يسرون ، حتى

تجمعت الجوع دارُ لديها هالة ، وعليها من العدل رونق
وجلالة ؛ فقلت في نفسي : دار القضاء لا محالة ؛ ومرقت
من فوري فصرت فيها ، أجول مع الجائلين في نواحيها ،
وهناك علمت أن هذا البناء الرفيع ، مقر حاكم القسم ، وأنه
يجلس فيه للقضاء بين الناس ؛ فقد رأيت كثيراً من دور
الحكومة في الأقاليم ، وهي التي يجلس فيها عمد البلاد
وأعيانها وحكام القرى للفصل في المنازعات ، فلم أرمحأحي
رفعة هذه الدار .

فأجابه أحدهم : إن قسم الصناعة أكبر أقسام المدينة
يامولاي ، فلاغرو أن تكون دار الحكومة فيه بهذا العظم ،
لكن أياذن لي مولاي إن سألته ، ألم يأن لحكومة جلالة
الملك أن تجعل القضاء عملاً مستقلاً ، ونظاماً قائماً بذاته ،

فلا يقضى بين الناس شيخ القرية ، ولا حاكم القسم ، ولا قائد
العسكر ؟ قال : وأى بأس بهؤلاء إذا انتدبوا للقضاء ، وهم
أشد الناس امتزاجاً بالآهالى ، وأعرفهم بطباعهم وأحوالهم ؛
وجلهم على معرفة واستقامة أخلاق ؛ بل إن الآهالى كثيراً
ما يفتزعون بمنازعاتهم إلى أفراد منهم اشتهروا بالعلم والخبرة
ليفصلوا فيها ، وهم يرتاحون لقضائهم ، ويقبلون أحكامهم ،
ويمثلون الصارم منها كالجلد ؛ وربما كانت هذه الأحكام
أدنى إلى العدل وأقرب للصواب مما يصدره قضاة تقيمهم
الحكومة ولا تلتقيهم ؛ ولقد رأيت الحكام فى القرى إذا
تصدروا للقضاء جلس بجانبهم نفر من الكتّاب والأعيان
ليمدوهم بالرأى ويردوهم إلى الصواب فيه .

قال الهدهد :

فاستغربت هذه الأقوال ، وعجبت للدهر كيف تشابه

وجهه وآخره ؛ فهذا قضاء العمد كان من ضمن نظامات
المصريين القدماء ، وهو اليوم الشغل الشاغل والمسألة الكبرى
في مصر ؛ وهؤلاء المحلفون كانوا يؤازرون القضاة على عهد
الفراعنة ، وهم اليوم من ضرورات القضاء في باريز مركز
الحضارة الحاضرة .

ثم التفت النسر حوله وقال لأصحابه : ما أجل
هذا الموقف !

وهناك بَصُرْتُ بالنسر في ناحية يحيط به جماعة من
أصدقائه وتلاميذه ، فاقتربت منه ، فهبطت مستقرى من
كتفه ، فالتفت إلى مبتسما فقال : جعل هذا الموقف للفضيلة
ينصرها فيه دُعَاتُهَا ، كما جعل للجرائم يفتضح فيه جُنَاتُهَا ؛
والمتمثلان فيه اثنان : جان تعلن برأته ، وهذا يبيكي عليه
من في الأرض ؛ وبريء تعلن جُنَايته ، وهذا يبيكي عليه من

في السماء ؛ ومن لى أن أكون الثاني !

فقال له أحدهم : قضاة منفيس يا مولاي قضاة عدل
ودراية ، فلا خوف على رفيع شرفك منهم .

قال : لا يضطرب إلا القاضى العادل ، ولا يخطئ إلا
القاضى العليم ؛ ولو أن لبتامور أن يحاكم نفسه بنفسه ، لحار
في شأنه مع الخمار فلم يدر أيقضى لنفسه أم عليها .

قال أحدهم : هبهم يا مولاي حكموا لصاحب الحانة
بشيء من المال يأخذه منك عوضا لما لحق به من الخسارة
المزعومة ، فما يكون شأن هذا الحكم ؟
قال : أكون قد أعطيت الفضيلة شيئا من مالى لأستكثره
عليها ولا أتبعه المن .

فسأله آخر : ما القضاء يا مولاي ؟

قال : محكمة ظاهرية ألجا إليها فساد المحكمة الباطنية !

قال : فما العدل ؟

قال : شيء كان مع الإنسان الأول حين لم يكن له في الأرض شريك يزحمه ، وكان لا يجد عليها من يظلمه .

قال الهدهد :

فبينما النسر وأصحابه في التحدث ، إذ دعى المتقاضيان للمثول في موقف القضاء ، فدخل الأستاذ ونفر من الشهود له وعليه ؛ وكان القضية نحو سبعة ، هم حاكم القسم ومعاونوه من كتاب الناحية وأعيانها ، وكان مترديا حلة للقضاء بيضاء ضافية محلاة الحواشي ، تزهو بقلائد العقيان التي كان الحكام يزينون بها صدورهم كلما جلسوا للحكم بين الناس ، فلما صار النسر بين أيديهم قال له الحاكم : أيها الأستاذ ، إن لك بمقتضى مناصبك السامية في المملكة أن ترغب عن قضائنا إلى قضاء جلالة الملك ، كما لك أن تقبل منا ، قضينا لك أم عليك ؛

فانظر ماذا تؤثر ؟

قال : رضيت بقضائكم ، لأن مناصبي السامية في المملكة ليس من شأنها أن تميزني على خصمي هذا في موقف يستوي فيه الخصوم ، ويُقَصَّ فيه للحصى من النجوم ؛ فاسمعوا له ولي ، ثم اقضوا ما أتم قاضون .

قال : إنه يقول إنك أزريت به وبتجارته ، وإنه لا بد له من بدل ، ويطلب من المحكمة أن تحكم له بمال يأخذه منك ، وقد جاء بشهود من عنده للإثبات ؛ فهل جئت بشهود من عندك للنفي ؟

قال : ليس لي شهود من عندى أيها القاضي ، وما خطر لي قط على بال أن الشهادة تتجزأ ؛ لأنه لا فضيلة ولا عبادة ، حيث يختلف اثنان في شهادة ؛ وإني لأعجب لكم معشر الحكام كيف تقبلون من شاهد أن يثبت ومن آخر أن ينفي ،

وأتمّ تعلبون أن أحدهما كاذب ، أو حرّف للشهادة لا محالة ،
وقبول الكذب إغرائاً به ! إن الشاهد دعامة القضاء ، إذا
مُنَتْ مَثْنٌ ، وإذا وَهَنْتْ وَهَنٌ ؛ فقوموه تقوموا به ، ولو أن
من الآلهة قضاة في الأرض ومن الملائكة متقاضين وفسد
الشاهد لفسدوا جميعاً . الشاهد عنوان الأمة ، فاجعلوا عنوانها
الصدق والفضيلة ، لا الميّن والرذيلة ؛ إن شاهدين يقول
أحدهما رأيت نهراً فيقول الآخر رأيت ليلاً ، ويقول
الأول سمعت ضحكا فيقول الآخر سمعت بكاء ، لمن حقهما
أن يُفَصَّلَ بينهما قبل أن يُفَصَّلَ بين المتقاضين ؛ فمن كذب
منهما يُسَلَبُ السمع والأبصار ، وينادى عليه في الناس
بالفضيحة والعار !

قال الحاكم : إن مقام هذا المقال المدرسة لا المحكمة
أيها الأستاذ ؛ لا بد لنا أن نسمع الشهود ، فليخرجوا وليبق

منهم واحد .

نخرجوا إلا واحداً ، فطلب القاضى منه أن يؤدى اليمين
القانونية ، وهى عند المصريين القدماء : « أقسم بحياة الملك ،
وبنعمة الآلهة ... » فأداها ، ثم قص على المحكمة ما رأى وما
سمع ، وحدث القضاة حديث الخطبة ، وأعاد عليهم منها حتى
فرغ من الشهادة فذهب لشأنه ، وجيء بغيره فأداها ، ثم شهد
ثالث ورابع وخامس ، فرأيت الكل على خلق واحد من
توخى الصدق والتوجه إلى الحقيقة والإيجاز فى العبارة ؛
فغبطت قضاة الفراعنة بهم وبسائر الأمة ، أمة الاخلاق ؛
ورئيت فى نفسى لقضائنا ، علما بما يكابدون من جهل
الشهود ، وروغانهم من الحقيقة ، وخطبهم فى المقالة ، بما
يخرج القاضى أحيانا من سكينته ، ويشتت خواطره ، ويذهب
بشمين وقته سدى .

ثم طلب القاضي من صاحب الحانة أن يشرح دعواه ؛
فتقدم رجل أسمر اللون ، صغير الهامة ، رقيق العنق ، قبيح
الوجه ؛ فسأله الحاكم : من أنت ؟ قال : فلان الكاتب
يا مولاي ، أنا بنى صاحب الحانة عنه فى تقرير شكواه ،
وشرح دعواه . قال : إذن تكلم . فأقسم الرجل ثم شرع يقول :
دخل السيد الأستاذ بتمامور ، وصديق ملك العالم ، حائنا
التي بشارع الصناعة ، يصحبه فتيان ، فلبث ريثما شرب قدحا
من نبيذ منفيس ، ثم خرج فلم ندر به إلا وقد وقف بباب
الحانة فمنعه ، واعترض للناس فى طريقهم إليها فقطعه ،
وخطب فى المسارة بعد ذلك فاستوقفهم ، وجلب الزحام
بعضه بعضا حتى خيل للرائى أن الحانة قُتل فيها قتيل ،
أو حدث فيها أحداث جليل ، وكانت الخمر موضوع خطبته ، وأولها
وآخرها ؛ فوصفها بأقبح الأوصاف ، ونهى عن شربها ، وحذر

من عواقبها ، وذكر مضارَّها ، وبين نصيب كل طبقة من طبقات
الامة منها ، وطالت خطبته حتى سمعها خلق كثير ، ومن فاته
أولها لم يفته آخرها ؛ ويعلم القضاة من جهة أن تجارة الأهلين
حرة في بلاد جلالة الملك ، وأن قوانين جلالته لا تحرم الخمر
ولا تمنع من المتاجرة بها ؛ ويعلمون من جهة ثانية أن للخطابة
مواقف لم يكن ذلك الموقف منها ؛ فلو قال الأستاذ في الخمر
ما قال وهو في التعبد بالهيكل أوفى التعليم بالمدرسة ، لما وجد
لائما ولا مؤاخذا ؛ لكنه عمد لشخص معين فأزرى به
وبتجارته ، بمرأى ومسمع من الكافة ؛ ويعلمون كذلك أن
أُلف الحانات بين الناس هم العامة في الغالب ، وهؤلاء يتأثرون
بذكر اسم الأستاذ بقتاؤور ، فكيف إذا سمعوا حديثه ، وكان
مداره ذم الخمر في بيتها ، وتقبيح تجارتها بين أعين تجارها ؛
ويعلمون أيضا أن المارة في أى قسم من أقسام المدينة ، إنما

يكون معظمهم من أهله وسكانه ، وحانتنا إنما جعلت لأبناء
تلك الناحية التي خطب الأستاذ عليها ، فكل ضرر ينشأ عن
خطبته إنما يلحق بالحانة خاصة ويصيب صاحبها بالذات .

هذه شكوانا بسطناها للحاكم وأعوانه ، آمليين من
عدالتهم أن يقدرُوا الخسارة التي سببها الأستاذ لنا بخطبته ،
وأن يسوموه أداء العوض إلينا .

فحين فرغ الرجل من شرح الشكوى ، لم يتمالك بقاء ور
أن ضحك ثم قال : أيها القضاة ، أعطوا الخمار من مالى ما شئتم ،
ولا تعطوا هذا الأحمق منه فتيلًا !

فسأله الحاكم : وأى علاقة بينكما وليس هو إلا محاميا
عن صاحب الحانة ؟

قال : علمت لئنهما اشترطا أن يكون له النصف مما
تحكمون به على ، وأن الخمار عارضه فى ذلك بادئ بدء ،

فكان جوابه أن التجارين سواء ، فكما أن الخمار يسلب
الناس أموالهم ، كذلك المحامي يشاطرهم أرزاقهم .

زعم الخصم أن قوانين جلالة الملك لا تحرم الخمر ولا تمنع
من المتاجرة بها ؛ ونحن نقول إنها تبيح السم أيضا ولا تحظر
الاتجار به ، مادام من العقاقير ، وكل ما أخذ بمقادير .

على أننا لم نحرم الخمر ولم ننه عنها ، وكيف وقد شربنا
منها قدحا باعتراف الخصم ؛ لكن دَعَوْنَا الناس إلى الاعتدال
في أمرهم وأخذ القليل منها إذا لم يكن من شربها بُد ؛
فشلنا كمن يقول لهم وهو على باب صيدلية لا حانة :
يا أيها الناس ، لا تأخذوا السم إلا بمقدار ! فهل علينا إن
قلنا هذا من حرج ؟ شتان بين النوعين من السم ، هذا يأخذه
المرء وهو يعافه ، وهذا يتناوله وهو يَلْدُهُ ؛ هذا يتجرعه
وهو يدرى ، وهذا يتعاطاه وهو لا يدرى ؛ هذا إذا أخذ

قليله نفع ، وإذا أخذ كثيره أراح ؛ وهذا صحة تزول ، وشعور
يعتوره ذبول ، وعلة تطول ، وميته عذابها يهول .

وزعم الخصم أن للخطابة مواقف لم يكن ذلك الموقف
منها ؛ ونحن نقول إن الموقف لم يكن أصلح منه للخطابة ؛
لأن مدمن الخمر لا يرثى له إلا في الحانة ، كما أن الميت
لا يؤبن إلا في القبر .

وزعم الخصم أن خطبتنا من شأنها أن تؤثر في العامة
الذين هم المشامون إلى الحانات ، وهذا ما كنا نبغي ، فإننا نلتقي
بالخاصة في المجالس ، ونكتب لهم ما تصل إليه أيديهم وأفهامهم ،
لكن لا يجمعنا والعامة إلا الطريق ، ونصحهم دين علينا
أينا لقيناهم .

وزعم الخصم أن البلاء مقصور على حانته ، لأنها إنما
جعلت لأبناء الناحية التي حاربنا فيها الخمر ، فأصبح ينتظر

من سكانها أن يولوا الوجوه عنها؛ وهذا يسوءنا بقدر ما يحزن
صاحب الحانة ، فقد وددنا لو عم النفع بقدر ما خص الضر .
أيها القضاة ، لا تحكموا للخيار فتحكموا على الفضيلة ،
ولا تقضوا له فتقضوا على التجارة الشريفة ؛ لأن المتاجر
بالخمر قاسى القلب لا يرحم صرعا ، غدار لا يشيع جنازة
قتلاه ، غشاش لا يقف فى الغش عند حد ، شره لا يقصر
فى الكسب عند غاية ؛ فإذا لم يكن منك رقيب عليه ، ولم يضرب
القضاء على يديه ، عظم شره ، وعم ضره ، وتشبه به الكثيرون
من أهل الكسل والشره !

ثم نطق القاضى بهذا الحكم :

نحن حاكم قسم الصناعة ، من أسباب حكمنا الذى نصدره
باسم جلالة الملك ، مقتبس من أنوار عدله المشرقة على العالم ،
أن النيات موازين الأعمال ، لاغنى للقضاء عن تقديرها

والتأمل فيها والوقوف حيث هي من صلاح أو فساد في الحكم
على صلاح الأعمال أو فسادها ؛ ونية الأستاذ بقتاءور يوم
خطب في شارع الصناعة ، كانت معقودة على أن ينفع الناس
ولا يضر بصاحب الحانة ، وأيضا إن الفضيلة هي روح
الشرائع التي يحكم بها جلالة الملك رعاياه ، فلا ينبغي لها أن
أن تُنصر عليها الرذيلة في حال من الأحوال ؛ والأستاذ
بقتاءور إنما نهى عن الإكثار من الخمر وإدمانها الذي هو
رأس الرذائل ، ونرى كذلك أن الأستاذ بقتاءور هو من
كبار أساتذة الأمة وأهل الإرشاد فيها ، وهذه الوظيفة
العالية يؤديها أمثاله الحكماء في كل زمان ومكان ، أينما وجدوا
وكيفما ارتأوا ، وكل تعرض لهم فيها تعرض للفضيلة ؛ وبناء
على ذلك حكمنا ببطلان دعوى الخمار ، وأن يدفع إلى الأستاذ
بقتاءور عشرين قطعة من الذهب ، لأنه سلبه بعض وقته

التمين ، وأخره عن أشغاله النافعة في دعوى لم يكن من شأنها
أن ترفع إلى القضاء ؛ ولهذا السبب نفسه حكمنا على الكاتب
فلان المحامي عن الخمار بخمسين جلدة يُجلدها في صحن دار
الحكومة هذه بمشهد من الناس ، عقوبة له على غشه صاحبه ،
ولكيلا يجترئ أمثاله الكتاب على أخذ أموال الناس
بغير الحق !

قال الهدهد :

ثم تشاب النسر تشاؤبه المعهود ، وفاه بكلمته المألوفة :
إذا جاء الليل ذهب الشياطين . وأمرني أن ألقاه غد ذلك
اليوم في دار الأمير « أوني » ،

المحادثة السابعة

قال الهدد :

فلما كان أصيل الغد ، خرجت إلى الموعد كالعادة ، وقد عيل صبرى لبخل النسر على الكلام ، وخبطه في ضرب المواعيد ، فدخلت منفيس ضالا حيران لا أهدى السبيل ، ولا أجد من دليل ؛ فجعلت أمر بالدور العالية ، وأطيف بالقصور الشاهقة ، لعل أجد ريح النسر ، على ذلك القصر ؛ حتى أتعبني طلابه ، وأغضبني احتجاجه ، وبُغِضَ إلى اصطحابه فعمدت لشباك مفتوح في طبقة من دار دخلته آمنه ، وقررت في رفٍ هناك ، ثم نظرت تحتي ، فرأيت غلمانا بضعة منتشرين في المسكن ، متقابلين على الأرض فيه ، وقد جلسوا أرضا ، وأقبلوا برءوسهم على رُكبهم ، وبين أيديهم شيء كثير من

ورق البردى وسائر أدوات الكتابة وهم في العمل ، وكان الصدر
لرجل يؤخذ من سنه وهيئته واتخاذ منصة للجلوس وأخرى
للأوراق ، أنه رئيس هذه العصابة ، والمسيطر على هؤلاء
الكتابة ، فخل إلى عندما رأيتهم على هذا الحال ، أتيت في بعض
الدوائر المصرية القديمة ، حيث الباشكاتب يتصدر والعمال
بجانيه يعرضون عليه الحرف والسطر والصحيفة .

قال :

وكان دوني غلامان متدانيان في الجلوس ، وكانا يتحدان
همسا : فاسترقت السمع ، فسمعت أحدهما يقول للآخر :
نحن نكتب غير مأجورين ونتعب ، وهذا الرئيس يأخذ
المرتب ! فأجابته الثاني : وليته يتركنا وشأننا وما نحن فيه
من حال تحنى الظهر وتدمى الركب وتقرح الجفون ، فقد
شكأنى من أيام إلى والدى ، وزعم أنى بطيء الفهم ثقيل

الحركة ا قال : وهل صدقه أبوك؟ قال : تردد ، ثم نقل الحديث إلى أمى فلم تصدقه ؛ وحلفت بنعمة الآلهة أننى أحضرُ ذهنا وأصح فهما منه ومن أولاده الثلاثة ا قال : إنه صديق لأبيك ولوالدى ، ولولا هذه الصداقة لما اتخذنا تلميذين له ، فليتها لم تكن ولم ندخل هذا القبر على قيد الحياة ا قال : لكن الناس إجماع على أن هذه الصناعة التى يمارسها هى سلم الارتقاء فى خدمة الأمراء والأغنياء ، وأن كثيراً من السكتبة وصلوا فيها إلى الجاه العظيم ، وحصلوا معها على المال الجسيم ؛ وقد حدثنى أبى وأنت تعرف مكانته فى العلم والفضل ، أنه رغب فى الاتصال بالأمير « أوى » أحد أنجال الملك ، وكان فى ديوان حُجابه عمل يحتاج إلى عامل ، فطلبه أبى بسفارة صديقه هذا الذى سَمَّنا من رويته ، وهو كما تعلم المأمور المتصرف فى ديوان أمواله ، فعرض اسمه على الأمير

في جملة ما عرض من الأسماء ، فلم يقع اختياره إلا على واحد
من الكتبة ، لكن أبي لا يرى هذا الشيطان ، وبتهمه بكونه
يُظهر مالا يبطن ، كدأب جماعة الكتبة المتنفقين على أن
يأخذ بعضهم بيد بعض في الأمر كله ؛ وهذا هو سبب قوتهم
وسر نجاحهم !

قال الهدهد :

ف عجبت لمصر أم العجائب ، كيف صبرت آلافا من
السنين على حال واحد مع هؤلاء الكتبة ، فكانوا على عهد
الفراعة هم أنفسهم وقت دخول العرب ، إلى زمن المماليك ،
إلى أيام محمد علي ، إلى حكم اسماعيل ، إلى عصر الاحتلال ؛
وفيه ظهرت الشهادة الابتدائية ، وأختها الثانوية ، فمات بها
الجهل وماتت الكتابة القديمة لكن هلك كثير من طلبة
الرزق في الحكومة بين طلبة العلم عن غير شهادة . . وحررت

فى نفسى فلم أدر أ أبكى ذلك اليسر مع الجهل ، أم أبكى من
هذا العسر مع العقل ؛ وكنت قد استبشرت عندما سمعت
اسم الأمير أوفى ، وعرفت من حديث الغلامين أن الديوان
له ، وهؤلاء الكتبة أتباع له ؛ وأملت أنى أستدل على القصر
بأحدهم ، فتحقق أملى على الفور ؛ إذ لم يلبث الرئيس أن
نهض ، فالتفت إلى من يليه من الغلمان وأخبره أنه ذاهب
إلى القصر لمقابلة الأمير فى بعض الشئون ، ثم خرج من
الباب ، فسبقته من النافذة وأنا أستغرب هذا الاتفاق ،
وأتعجب من المصادفات كيف تلتصق ؛ فما زال فى سيره ،
وأنا فى أثره ، حتى احتوانا طريق ضيق ، جمعتنى العناية فيه
بالسر ؛ وكان يمشى متمهلاً كثير التلفت ؛ فلم أتمالك عن
الوقوع على كتفه ، فلما صرت فى عشى المألوف منه ، التفت
مبتسماً مسروراً ، وقال : لقد خفنا على الهدهد الضلال !

قلت : ما زلتَ يا مولاي تُضله ، وما برحت العناية تدلّه !
ثم حدثته حديثي وما وعيت من محاوراة الغلامين ،
فاستضحك ثم قال : انظر كيف يستفيد الغريب من الضلال
أضعاف الفائدة من الاستدلال ! قلت : لقد أوشكت
يا مولاي أن أضلّ حلما فيكم وفي شئونكم الغريبة ، وأحوالكم
العجيبة ؛ لأنكم تهزلون وتجدون ، وتصغرون وتعظمون ،
وتجهلون وتعقلون ؛ كيف يكون مثل ذلك الكاتب على
ديوان أموال الأمير وفي المملكة من يصلح لهذا العمل
وأمثاله من طلبة العلم بين شبان البلاد الأكفاء ؟ قال : وأي
كبير لا يصغر أحيانا يابني ؟ إن للأمة الكبيرة كما للفرد
الكبير زلات وجهالات ، تدل على الكمال الكامل للألهة
وحدهم ، فإذا دخلت على قوم ديارهم فلا تحكم على أشياءهم
متفرقة ، واحكم عليها مجتمعة .

ثم أنضى بنا المسير إلى ميدان وسيع ، فيه قصر رفيع ،
فمشى النسر نحوه ، فسألته : لعلها دار الأمير يامولاي ؟ قال :
نعم ، وليس ماترى إلا قصرًا من نحو مئة قصر ، يحيط بها سور
واحد ، ويأوى إليها الملك ونساؤه وأولاده وأرباب خدمته ،
كلٌّ بقدر درجته في القرابة ، وحسب منزلته في الصحبة
وموقفه في الخدمة .

قال الهدهد :

فاستغربت الأمر ، وقلت للنسر : ماترك الأول للآخر
يامولاي ؛ فليست يلدز بالشئ الذى يُذكر في جنب هذه
الآبنية الفرعونية ، والمساكن الرمسية ! قال : ألم أحرمك
أن تقيس ، وأن تذكر أحد الملوك برمسيس ! قلت :
لا أعود لها يامولاي !

ثم دخلنا القصر ، فجعلنا نلج بابا ونستقبل آخر ، ونخرج

من ساحة وندخل فى ساحة ، ونطوى دهليزا إلى دهليز ، بين
حراس جملة ، وجند عدة ، وخدام لا تنقضى لهم جينة
ولا ذهاب ، حتى ضمتنا حديقة من أبدع ما غرست الراحات ،
وأكرم ما أخرجت الأرض من النبات ؛ فاجتزناها إلى
قصر له بهو يتمشى فيه الأمير الشاب ، بين اثنين من
الاصحاب ؛ فحين وقع نظره على الأستاذ ، تهلل واهتز ،
وانثنى إلى ما وراء البهو ليستقبلنا ، وسار الغلمان بين يدى
النسر حتى أدخلوه على الأمير ، فالتقاء أحسن التقاء ، وأعلى
محله ، وأجلسه بجانبه ، وأوما إلى صاحبيه فجلسا دونه فى
الحضرة ؛ ثم خاطبه والابتسام مله فيه ، فقال : لعل هذا هو
الهدهد السحرى ، الذى لا يفارق الأستاذ فى هذه الأيام !
قال : هو بيمينه ، فن حدثك حديثه يا مولاي ؟ قال قداسة
هوروس (من ألقاب الفراعنة) قال : أوبلغ حديث الهدهد

إلى الباب العالى (من ألقاب الفراعنة) ؟ قال : وهل تخفى
على جلالته خافية فى الأرض أو فى السماء ، وهو المضطلع
وحده بالملك فى الأولى ، وشريك الآلهة فى ملك الثانية ؟
قال : كذاك هو يامولاي ، لكنه لم يسألنى عن أمر هذا
الصاحب الجديد ! قال : لعل شاغلا شغله . قال : هذا الهدهد
يامولاي خُلق لمجالس الملوك والأمراء : لأنه أصم لا يملك
السمع ، أخرس لا يملك الخطاب ؛ اللهم إلا أن يتنزل
فيه من روح الملك يوم يُعرض عليه فينطق بما يدهش
السامعين ، ولا يدهش ذا القصرين (من ألقاب الفراعنة)
لأن سره إذا حل فى نبات مشى ، أو فى طير نطق ؛ فلا يجدن
مولاي من بأس فى تشرفه الآن بالحضرة ؛ لأنه يكتُم
الأخبار ، ولا يذيع الأسرار . قال : الكريم يصحب
الكريم أيها الأستاذ ، ولو حملت معك البيغاء ، وهى النافلة

الواشية من بين الطير ، لائتمناها كما نأتمنك ؛ والآن لعلك
تدعوني إلى الدرس . قال : إن أذنت يا مولاي ! فتبسم الأمير
ثم قال : ألا تراني كبرت عن الدرس أيها الأستاذ ؟ قال :
ما أعلم على بشر أنه كبر عن التعلم يا مولاي ، ولو سألت
جلالة الملك وهو الموحى إلى من في الأرض ، الموحى إليه
من السماء ، لأجاب أن الكمال ميسورٌ بلوغه إلا في العلم .
قال : فما باله أعفى كثيراً من إخوتي الأصغر سنًا من
الدروس ؟ قال : وما يدريك أنه يستعجبك ويرجو أن
يستثمر غرس عنايته بك ؛ فقد سمعته في بعض الأيام يقول
لمن حوله : إن (أوني) لعلى بيان ، وإن البيان لخير مظاهر
الملوك والأمراء ، يسترق لهم الخواطر ، ويسعى لهم بالقلوب .
قال : لو أنهم يختصرون معي من الدروس ، فلا يكلفوني
منها ما يهجه ذوقى وتأباه طباعى ، مثل الرماية ، وركوب الخيل

ومطاردة السباع في الصحارى والقفار ، لأقبلت على سائرها
إقبال الحيارى المستفهمين على الهياكل ينتظرون جواب
الآلهة في معضلات المسائل . قال : من الناس يا مولاي من
تلجئه منزلته في هذا العالم إلى ممارسة ما يكره ، وركوب
ما لا يود ، وأنت ابن الملك ؛ وناهيك بها من نسبة يتلاقى فيها
أبوك والشمس ؛ وإنما لتجعلك حيث لا يكون سائر الناس ؛
فأنت ممن معك بين أصحاب موالين ، لا تأمنهم أن ينقلبوا
أعداء مقاتلين ؛ بل أنت من قصرك هذا في شبه حصن تحرسه
الآن مهابتك ، ولا يحميه عند الكريهة إلا ثباتك وشجاعتك ؛
وإذا خرج فتیان المملكة إلى قتال المتوحشة بنى الخراب
(كنية الأمم الخارجين من حكم الفراغة) ومنعهم من الغارة
على البلاد ، نصرة للآلهة ومواطنهم المقدسة ، خرجت أنت
ناصراً للآلهة ، ذائداً عن مُلك أبيك المؤيد بالشمس ؛ فأنت

إذن من جنود الصف الأول الذين لا غنى لهم عن قلوب
تُقسِّمها ملاقاته الأسود ، وجسوم ينشطها ركوب الخيل ،
وأحداق تحذوها مزاولة الرماية ، وسواعد يقوِّمها الضراب
بالسيوف . واعلم يا مولاي أن هذه الدنيا لمن غلب ، وأن
الغلبة فيها للقوة ، وأن الأمم لا تحفظ الاستقلال موجودا ،
ولا تسترده مفقودا ، إلا بالقوة ؛ فيتعين إذن على كل إنسان
يحب بلاده محبة حقيقية ، ويريد بقاءها بمنفعة الجوانب ،
عزيزة المنال على الأجانب ، أن يثبت نفسه بالفضيلة ، ويقوى
بدنه بقدر الإمكان ، ويتعلم فنون الحرب في السلم ، وأن يشيب
على ذلك ، ويسوم أولاده أن يشبوا على مثله ؛ حتى إذا دهم
البلاد يوم عصيب ، استدفعته بشبان من أبنائها وشيب .
إن الأسد إذا أقعده الهرم ، ناشته الذئاب كما حدى الرمم ؛
وإن الباز إذا خفضت رأسه الدهور ، توثب على منسره

العصفور ؛ وهكذا الأمة ، لا تغني عنها الفضائل جمّة ، إذا هي
لم تجعل الشجاعة رأسها ، ولم تستحضر في الحرب والسلم
قوتها وبأسها . نشأ أبوك الملك يامولاي ونشأنا معه ، نحن
رفاق صباه ، في التخشن والتقشف ، وأنواع الرياضة البدنية ،
من صيد ومطاردة ، وقتال صوري ، ولم يكن جدك الملك سيقى
يقدمه على أحدنا في المعاملة ، أو يفرق بين أحد منا في المجاملة ؛
بالرغم من مختلف الأنساب ، ومتفاوت الأحساب ، فلم يبلغ
الواحد منا الخامسة عشرة من عمره ، إلا وهو كالشبل النوبي ،
لا يقر له قرار ، في الفيافي والقفار ، وقد أوتى والدك
الملك وهو يحبو إلى العشرين ، فاحتكم بكفكم خلب الأسد ،
وقلب كقلبه أو أشد ؛ وكنا نحن المرشحين لمشاركته في سياسة
الأمور ، وأعوانه الطبيعيين على مداورة الشؤون ؛ فوجد
عندنا سواعد قوية الباس ، وعزائم شديدة المراس ، وعقولا

صحيحة سليمة ، في جسم قوية قوينة ؛ ولا أكتملك يا مولاي
أنى كنت كثير الشكوى مثلك ، أضيق ذرعا بتلك النقل ،
وأتعب بتلك المشاق ، وأشتهى جلسة على شاطئ النيل في
ساعة الغروب ، لى أخذ من محاسن الأكوان وأسرارها ،
وأشهد معترك ظلماتها وأنوارها ، وأنظر إلى المساء إذا قعد ،
وإلى النبات إذا سجد ، وإلى الطير إذا هجد ؛ وأسمع ذلك الخير ،
تأليه بأصوانها النواعير ، وقد انفتح للكائنات هيكل من
خاطري فجمّعها ، فهى تمجّد الآلهة فيه وأنا أجدهم معها ؛
إلا أن والدتي كانت تقص على قصص الوحوش من الشعوب
الذين أغاروا على مصر في الزمن الأول ، وتمثلهم لى في
أفضع الصور ، وتصفهم بأقبح الأوصاف ، فبينما هم الذئاب
العاوية ، إذا هم الأسود الضارية ، إذا هم الشياطين العاصية ،
فروا من الحامية ، وردّوا إلى الدنيا ثانية ؛ وكانت تقول إنهم

لا يفرون إلا من السلاح ، ولا يعصم منهم إلا السواعد
العبرة الصجاح ؛ فكنت إذا سمعت ذلك منها ، قصرت
الشكوى ، وصبرت على البلوى ؛ حتى تمت لجسمى التريية ،
فانقطعتُ لهذيب نفسى .

قال الأمير : ومَن لى أيها الأستاذ بأمِ كالنى ذكرْت ؟
إن والدتى أول العاذلات لى على ما أنا فيه من إجهاد نفسى ،
وإتعاب جسمى ، وهى تزعم أنه مادام المليك من بعد أبى
سيصير لأخى الأكبر ، فلا حاجة بى إلى مثل هذا
الكد والسكدح .

قال : ويح الأمهات ! طالما جنين فهدت الرحمة عذرهن .
أنت يامولاي إن لم تكن وارث المليك فإنك وارث المليك ،
وهو على فضائل لا بد لك أن تكون عليها ؛ لأن المسؤولية
فى هذا العالم بقدر منزلة الإنسان فيه ؛ ومَن أرفع منزلة من

ابن رمسيس ؟ على أن محبة أخيك لك ، وثقته فيك يوم
يقل إليه الملك ، تكونان بقدر قسطك من المزايا ، ونصيبك
من الفضائل ؛ فإن كانا موفورين وكان أخوك برًّا بك مقبلا
عليك ، كنت ساعده في الملك ، ومساعدته في الحكم ؛ فإن
فاتك منه هذا لم يفتك إجماع الناس على تعظيم نسبك ،
وتكريم حسبك .

قال : أتظن أيها الأستاذ أن يخرج منا معشر أبناء
رمسيس ونحن خمسون أو نزيد ، من يشبه أباه ، ويخطو في
سبل الفخار خطاه ؟

قال : مثل هذا السؤال يا مولاي يلقيه أبناء الملوك
ولا يبالون ؛ لكن الحرج كل الحرج على من يُسألون ؟
قال : نحن الآن صديقان نتحدث ولا نختلف . قال : إنني
أرجو أن تكونوا من بعده كماه الورد بعد الورد : يحفظ منه

شيئاً ، ومعذورٌ أن تفوته أشياء ؛ إن السعادة يا مولاي لم تكمل
لملك كما كملت لأبيك في حياته ، فهل نُكلفها أن تبقى عليه
بعد مماته ، ولئن صح ما أعتقد من أن الإنسان قد يحيا في
نسله ، ويلبث في فرعه كما يبعث من أصله ، فربما حي لدى
أحدكم ما يموت من فضله ؛ لكن من لكم يومئذ بالملك الجسيم
يظهر ذلك الفضل للعباد ، وبالحظ العظيم ينشره في البلاد ؟
قال : صدقت أيها الأستاذ ؛ فهل تدلني على ركن من السعادة
ألوذ إليه فأسلو ما لا يدرك من محاكاة أبي في بلوغ
السعادة الكاملة ؟

قال : عليك بالشهرة يا بني ، فإنها محسودة الملوك والأمراء ،
وأفضل ما تنال بالعلم وأثبت ما تكون به ؛ فاطلبه وجالس
أصحابه ، واجهد وسعك أن يقال عنك ابنُ نفسه ثم ابنُ رمسيس ؛
فهذه هي اللذة الحقيقية ، والسعادة التي لا يعدلها في هذا العالم

إلا الصحة . أبقها الآلهة عليك .

قال الهدد :

وبينما أنا أنتظر أن يدعو الأمير إلى الدرس ويأخذ في
إلقائه عليه ، إذا هو قد ثامب كعادته ، ثم التفت إلى مملوء
الجفنين من النعاس فقال : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ؛
فالتقي أصيل الغد على باب القصر . فانتبهت من حلمي ، فإذا
أنا في عشي بجلوان .

المحادثة الثامنة

حدثنا الهدهد المسحور ، الدخيل في الطيور ، كحال ذلك
الناطق في النسور ، السابق في المنظوم والمنثور ، وما هو
إلا بقتاور ، شاعر القدم المشهور ، الخالد ذكره مع الدهور ؛
أنشُر شيطانه ، وبُعْث بيانه ، وأرجع للناس زمانه ؛ قال :
لما كان الغد وأزف الأصيل ، خرجت إلى « منف »
المنبعثة بقوة الخيال ، المتمثلة كما كانت في العصر الخال ، إذ
المالك رمسيسُ المعظم ذو الجلال ، وإذ الملك في ذروة
السعد وأوج الكمال ؛ فبلغتها وأنا حيران لا أدري على أي
أبواب القصر ألقى النسر ؛ لأنها متفرقة كثر ؛ وقد تقدم
القول بأن الدار الفرعونية تكاد تكون ثلث المدينة من
التناهي في السعة وكثرة المشتملات وتمدد الأطراف ؛ لكل

زوجة فيها أخبية منصوصة ، وأفنية بها مخصوصة ؛ وما أكثر
الزوجات ! ولكل ولد غرف منفصلة ، ومقاصير منعزلة ؛
والملك كثير البنين والبنات ؛ ولا تسل عن الحاشية وكثرتهم ،
وما يلزم لهم من مساكن تختلف باختلاف منازلهم في القصر ،
وتتفاوت بتفاوت مواقفهم في الخدمة ؛ وفي الدار منهم آلاف
يؤدون الخدم المتنوعة ، ويمارسون الصناعات المختلفة ؛
وبالجملة فالقصر السلطاني من امتداد البنيان ، وسعة الجوانب
والأركان ، بحيث لا تحصى أبوابه ولا يغنى أحدها عن سائرها ؛
فحين انتهيت إليه ، ولجته من الباب الذي دخلناه بالأمس ،
وحينئذ ذكرت أن الساعة ساعة الدرس ، وأنى ربما لقيت
الاستاذ في مقر الأمير « أوني » ؛ فاحتلت حتى دخلت على
الأمير في غرفة جلوسه ، فلا والله ما عللت النفس بكيد أب ،
ولا أوردتها السراب ؛ بل إذا أنا بالأمير وجمع من إخوته

وكبار الأتباع ، قد داروا كالحلقة بالنسر ، وهو في بهرتها
يتلطف لهم في التعليم ، ويخلط المفاهمة والتدريس ؛ فوثبت
إلى رفرف هناك فططت فوقه ، وأنا مسرور بما وجدت ،
قريب بما شهدت ؛ ثم ألقى السمع ، فسمعت الأستاذ
يقول :

والذي يميز علماء هذه الأمة على غيرهم ، ويجرى بهم إلى
الغايات ، ويكفل لهم السبق ، ويجعلهم أساتذة وقتهم ،
ومصاييح عصرهم ، أنهم يطلبون العلم لذاته ، ثم لأنفسهم ،
ثم للأحداث من بعدهم ؛ وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب
علم ورزق الحجا والذكاء وفُسحة الأجل ، إلا نبغ في حياته ،
ثم جاوز ذلك إلى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته ؛ فيا أيها
الأمراء ، ومن يلوذ بهم من الخواص والكبراء ، من أحب
منكم العلم حبا صادقا ، وطلبه لذاته ، فليأخذه مني ؛ ومن

حضر منكم مجلسي هذا وهو فارغ الفؤاد من حب العلم :
عينٌ ساهية ، وأذن لاهية ، وجسم في ناحيةٍ وقلبٌ في ناحية ،
فليأخذ العلم من غيري !
قال الهدهد :

فرايت ، وما أعجب ما رأيت ! رأيت أكثر الحضور
انسلُّوا من المجلس ؛ فدهشتُ لهذا الصدق ، واستغربت من
القوم هذا الرجوعَ في الضمير إلى الحق ، وذكرت مجالس
من هذا القليل يعقدها بعض الكبراء في مصر ، تظاهرا بمحبة
العلم ، ويتصدر فيها للتدريس عبَّاد الشهرة من العلماء ،
ويحضرها البعض رياء وتمليقا .
ثم استمر النسر فقال :

حُبُّ العلم يطلبه لذاته ، وهذا أول التوفيق في طريق
التحصيل ، وسبب النجاح الأوثق ؛ لأن النفس حيث رضاها ،

وحيث يجعلها هواها ، ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم ، وامتلا فؤاده من حبه ، أقبل عليه ، وضمن به ، وانقطع له ، وألغى التعب راحة في تحصيله ، واستوى عنده السلامة والعطب في سبيله ؛ ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه ، وأنه ما خلق في هذا التقويم سدى ، ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثا ؛ فتأخذه من ذلك عزة بالحق ، وتنزل نفسه في عينه منزلتها الحقيقية ، فيطلب العلم لها ، ويستكثر منه لأجلها ، ويجرى فيه إلى الغايات في سبيلها ، لِمَا استقرَّ عنده من أن العلم يحيي النفوس ويهديها ، ويطالعها على الحياة وأسرارها ، ويوصلها إلى كنه أغوارها ، ويسهل لها حجابها ، ويهون عليها الفواجع في دنياها ؛ وهذه هي المنزلة الثانية في العلم ، يقف عندها سواد العلماء ، ولا يجاوزها إلا آحادٌ يُستخرهم الآلهة بهذا الوجود ، فيعملون فيه العمل العظيم ،

ثم يموتون عن تراث في الفضل جسيم ، من بنيان يُخلَّدون ،
أو حكمة يُؤبَّدون ، أو مجدٍ يَشِيدون ، أو فن يُجَدِّدون ؛ وهذه
هي رتبة الامتياز بالاختراع ، ولا يقال عن أمة إنها بحياةٍ
ولها وجدان ، حتى يبلغ أفراد من بينها هذه الرتبة ؛ ولئن
كان العلماء في الأرض عدد ما عُرف من النجوم في السماء ،
فهذا الفريق منهم كالسكواكب التي لم تُعرف بعد ، يكشف
منها واحد على رأس كل مائة ؛ وإنهم لأجلُ منها وأنفع في
الوجود وأهدى للناس ؛ وما بلغ بهؤلاء العلماء إلى هذه
الرتبة العليا والمنزلة العظمى إلا ترقيهم في عرفان قيمة النفس
ومُغَالَانِهم بها ، واعتقادهم أنها لا تقنى ، وأنها أجلُّ ماهية
وأعظم شأنًا من أن تُحصَر بأيام الحياة القلائل ، ولئن تحتم أن
تخرج يوما ما من هذا الهيكل الزائل ، فلها من جميل الذكر
ومحمد الأحاديث هيكل خالد فاخر ، يتجلى في الخواطر ،

ولا تراه النواظر ، ولا يستأثر به مكان دوز مكان ، ويتوارثه
الدهر زماناً عن زمان .
قال الهدد :

ثم التفت الأستاذ إلى الأمير ، وكان الدرس قد طال ،
فأذن له في الإمساك : فأمسك وتحفّز للقيام ، فطرت إلى
كتفه ، فنهضت فيه وأنا حيران على ما فاتني من أوائل درسه ؛
حتى إذا انصرفنا من حضرة الأمير ، التفت إلى وقال : كيف
وجدت مجلسنا أيها الهدد ؟

قلت : استطبتُه يا مولاي وإن حضرت في آخره ،
واستدلت بهذه الحبة من العنقود على سائرهِ !

قال : لنا تلميذ في القصر نتعلم منه أحياناً ، ونزداد كلما
حدثناه علماً وبياناً : فهل لك في زيارته الساعة ؟
قلت : الأمر إليك يا مولاي .

فسار النسربى يخرق وسيعات الدور ، ويجتاز شاهقات
القصور ، وهو يُعِينُهَا إلى واحدًا بعد واحد ، ويسمى أهلها ،
ويصف ما فيها ، حتى أفضينا إلى قصر لا يبلغ البصر ذروته
ولا يدرك سمته ، فقال : هذه مساكن الملك خاصة ، ونحن
قادمون عليها .

ثم وصل سيره بين رياض ناضرة ، وحدائق زاهرة ،
وسُوحٍ وسيعة ، وأسوار رفيعة ، ومقاصير كالغيد الحسان ،
تموج بالجوارى والغلمان ، إلى أن بلغنا إحدى الغرف ، وكان
على بابها غلامان يحرسانها ، فوقف الأستاذ ثم سأل أحدهما :
أين « تحوت » ؟ فأجابه : فى غرفة الكتابة يا مولاي . قال :
اذهب فاستأذن لنا عليه .

فدخل الغلام يؤدى الرسالة ، والتفت النسربى إلى فقال :
رأيت جميع الفواجئ فلم أر أثقل على الإنسان من مُفاجئ

في ساعة الكتابة ؛ وقد استأذنا ، فلعل تحوت يأذن لنا !
وما كاد يستتمّ حتى خرج إلينا فتى مليح الطلعة ، حسن
الزّيّ ، ترى دلائل الذكاء على جبينه الوضاء ؛ فأنحنى بين يدي
الاستاذ وقال : زارنا خيرٌ من نُحِبُّ ونُكْرِم يا مولاي !
ثم أخذ بيده ، فدخل وهو ينظر إلىّ ويقول للنسر :
لعله مُدهدك السحري الذي شاع ذكره في المدينة
يا مولاي ؛ وليس بمستنكر على من سحر البشر أن يسحر
الهداهد !

قال : كيف أنت والمملك يا تحوت ؟
قال أفضل مولى هو ؛ فمن لى أن أكون أصدق عبد ؟
يُحِبُّني كبعض ولده ويشق بي كبعض قدماء أصحابه ، ويؤدبني
بالإشارة الخافية ، والحكمة العالية ، والنصيحة الغالية .
قال : هكذا عهدناه : إذا صادق أعزّ ، وإذا عادى أدلّ ،

وإذا أحب بلغت به الميقة ، وإذا وثق لا يرجع عن الثقة !
ثم جلس الصاحبان ، وطاف عليهما الغلام بشيء من
عتيق النبيذ ، فسأل الأستاذ صديقه الفتي : من أي الكروم
هذا المعتق يا تحوت ؟

قال : مما يرضن به الملك يا مولاي ولا يوجد إلا في
خوابيه ، وقد أمر صاحب شرابه أن يملأ دنانى منه كلما
فرغت ؛ وسبب ذلك أن جلالته نزل مرة إلى أن ناولنى
منه شيئاً بيده المقدسة ، فدعوت له ، ثم قلت : أيها الملك
المعبود ، كانت حلب العنقود ، فصارت بئر كحلب الخلود ،
من يذوق منها لا يخرج من الوجود ؛ فمن لى بها تنجلى ، فى
كأس لا تقنى ولا تمتلى ، أذوقها بلسان رطب عليك ثناء ،
وأشربها بضم مملوء لك دعاء !

فسرَّ الملك بهذه الكلمة في شكره ، وكان ما كان
من أمره .

قال : هكذا الملوك العظام ، يحتالون على الشاء ، ويأخذونه
من عبادهم الأمانة ؛ والآن أئذن لنا يا تحوت إن سألناك
ماذا تكتب ؟

قال : ولم يا مولاي ، وما كتبت في عمري حرفا
إلا عرضته عليك ؟

ثم مشى الفتى إلى منصّة الكتابة ، وكانت عليها رسالة من
إنشائه ، جفّ مدادها أو كاد ؛ فأخذها ، ثم دفعها إلى النسر
وهو يقول : هذه الرسالة منى إلى أخى ، أحد جنود الملك
في أسطول البحر الأحمر ، أشكو فيها من بطء مكاتبيه عنى ،
وأبشره بمنزلة الجديدة في الخدمة الشريفة ، وأصف له بعض
أخلاق الملك .

قال الأستاذ : ما قرأ الكلامَ مثلُ كاتبه ؛ فخذ
فأسمعنا يا تحوت .

فتناول الفتى الرسالة ثم قال : « يا أخى ، ما شغلك عني
وأنا المشغول بك ، أعتنى بأمرك ، وأسأل عن خبرك ،
وأذكرك في السرِّ والعلانية ؛ أأفزع بالشكوى من هذا
الجفاء ، إلى شيمتك الوفاء ؛ أم أعوذ بهوروس حامى حمى
الشغور ، ومُسَيِّرِ تلك الأساطيل كالجبال في البحور ، أن
يكون بين جنده من ينسى الصديقَ وينام عن عهده ، وقد
عُرِفَتْ نفوسُهم بالوفاء ، كما وُصِفَتْ بالنخوة والإباء ؟ ولئن
أخذتَ بقسط من العزة التي هي لجنود الملك بالحق ، فإنها
لكم جماعة الجند ولنا معشر الحاشية ، وما سوانا من الناس
فأشباه ، إلا من حُسِبَ على رفيع ذلك الجاه . ولعله نبي
إليك أنى آزدت من حظوة ، واستفدت في سُبُل الفخار

خطوة؛ فجعلت على ملابس الملك أنشرها وأطويها، وعلى
جواهره أسهر على حفظ غاليتها؛ وقد أسفقت من الأمر
في أوله، وحملته وأنا أعلم أنه جسيم، وأنى قادم على ملك
تامّ المهابة عظيم، فلا والآلهة ونعمائهم، وآباء الملك وثنائهم،
ما سمعت كحديثه، ولا آتست كبشره، ولا رأيت كحلمه،
ولا عرفت أقل اغتراراً بالدنيا منه، ولا أكثر ذكراً
للآخرة؛ إذا دخلت عليه بثياب الملك قال: ما هذى
العوارى يا تحوت، وإذا حملت إليه التاج قال: ألبسنى
يا تحوت فلا تمس يدي شيئاً يخرج منها غدا. وسألنى جلالته
مرة: ما أجمل الثياب يا تحوت؟ فقلت: ما تجمل بالملك!
قال: كذبت ربك! أجملها ما لبس الفقير بعد الغنى؛
وثيابى لا تصلح لفقير بعدى؛ فمر صناع لباسى ألا
يتقشوا رموز الملك على جميعه، وأن يقصروا ذلك على

ما أتخذ منه في المحافل . وطلب خاتمه له من نحو ألف خاتم في
الخزانة ، فنشأ بهت على ، فأبطأت ولم أجسر على مخاطبته ؛
فلم أدر إلا به عند رأسي وأنا في البحث عن طلبه ، فتبسّم
ثم قال : الخاتم لك إن وجدته يا تحوت ! فأطرقت هنيهة ثم
قلت : في البحار يا مولاي مليكة اللؤلؤ التي لم يُهد لها الملوك
حتى الآن ، وهي لجلالة الملك إن وجدها . فاستضحك ثم
قلّب طرفه في الخزانة حتى عرف الخاتم ، فقال : هو ذا
الخاتم نخذه فهو لك يا تحوت ! فقبّلت الأرض بين يديه
شكرانا لأنعمه : ثم تحوّل عني فسمعتة يقول : أيّ آمون ،
جنّبتني الغضب ، وأدبني أحسن الأدب ، واجعلني من يُشيب
لسبب ويعاقب لسبب ! وحسدني حاسد على منزلتي الجديدة
في خدمة الملك ، فوشى بي عند جلالته ، وقال عني إنّي أذيع
كلماته وأنقل ما يدور بيننا من الحديث ؛ فقال له الملك :

أنا أعلم بما أقول ، وليس في كلّي ما يريب فأكره أن يصل
إلى عبادي ! ثم أمر بالواشي فطرد من خدمته ؛ وقال :
الملوك اثنان : ملك أذنه للظلم ، وهذا سيد الأكارم ؛ وآخر
أذنه للنمام ، وهذا عبد الألائم ! ورماني أحدهم عند جلالاته
بأنّي كثير الخلف بحياته ؛ وهذا كما تعلم مُحرم على العامة ،
مكروه صدوره عن الخاصة ؛ فقال : رجلٌ عيشه بعيشي ،
ولا يشق بصفو الحياة بعدي ، له ألف عذر أن يخلف
بأيامي ! ثم أردف بأن قال للواشي : ونحن معشر الملوك
أُحوجُّ إلى من نَحْمَدُصُّ لنا سرائره ، مِنّا إلى مَنْ يرضينا
ظاهره ؛ نلقى إجلال الناس حيث ملّنا ، ولا نثق بحبهم
لنا . . . هذا قليل من كثير من كلمات الملك التي اختصه بها
آباؤه ، وبودّى لو نلتقي على خلوة تطول ، لأحدثك عن
جلالاته فتقول زدني من حديثك ، ولتعلم أنّه ملك الملوك يقينا

ولو نُظر إليه عابلاً من أبهة الملك وعظمة السلطان ، وأن جنوده ملوك الجنود ؛ فحسبنا شرفاً ما أنت فيه يا أخى من إعزاز لوائه والاعتزاز به ، وحماية سفنه والاحتواء بها ، والحياة فى ظل ملكه والموت دون شرفه الرفيع .

قال الهدهد :

وما كاد تحوت يفرغ من قراءة رسالته ، حتى تشاءب النسر ، والتفت إلى مئقل الجفنين بالنعاس ، فقال : إذا جاء الليل ذهب الشياطين ، فالقنى غداً فى دار الأعمى « بسادر » .
فخرجت من صفو تلك الأحلام ، إلى كدر اليقظة بين هذا الأنام .

المحادثة التاسعة

قال الهدهد :

فلما كان اليوم للثالثي ، قضيت النهار في كد وكدح وتعب
حياة ، وأشغال دنيا طالبها حاتم ، على ماء دائم ، وليته دائم ،
إلى أن كان أوان الموعد ، فثرت إلى منف ، وأنا لا أستطيع
للغيظ كظما ، ولا أملك في أمر النسر حلما ، ولا أظن أن
سأهتدي إلى ذلك الأعمى ؛ فلما بلغت بناء «منا» الدائم ،
وقدمت أم المدن القدائم ، نظرت إليها نظرة مرتاح ، وقمت
لديها على جناح ، وقلت في نفسي : صفحاً للنسر عن هفواته
إذ كان هذا المنظر من حسناته ؛ وهكذا الإنسان : ينسى
ويذكر ، ويكفر أحيانا ويشكر .

ثم فكرت في الأعمى وداره ، وما يقتضيني النسر من
مزاره ؛ فسألت نفسي : من ياترى الرجل حتى يزوره
النسر ، وأى العميان هو ، فهم كثر ؟ تراه « شمشون » في الهيكل
انبعث ، أم « المعزى » قام من الجذث ، أم « يعقوب »
أبيضت عيناه ، من الحزن على فتاه ؛ أم « بشار بن برد »
قام من اللحد ؛ أم « أبو العباس » الأعمى ، أم « دريد بن الصماء »
أم الخليفة « القادر » في أيام محنته ، أم « حسان بن ثابت »
في آخر مدته ، أم « الشطبي » أم « طوبيا » النبي ، أم « هومي »
الشاعر اليوناني ، أم « ملتون » الشاعر الإنكليزي ، أم
« مرصفي » هذا الزمان ، صاحب « الوسيلة » والكلم الثمان ،
وأول من علم الهدى البيان ^(١) ، أم « داود الأكمه » ، أم

(١) يشير المؤلف إلى أستاذه « المرصفي » .

« ابن سيده ، أم « الظليطلى » ، أم أكمه المسيح ، أم أعمى
عبس ، أم الأعمى الذى قتل البصير ، فى هذا الزمن .
الآخير (١) ؟

ولم يبق أعمى فى الزمن الغابر ، إلا مرة ذكره بالخاطر ؛
ثم قلت : لعلها تعمية شاعر ، والرجل من عُمى البصائر فتشابه
البقر على عندئذٍ وقلت : لعله أحد الغَزَّ (٢) الذين أمِنوا لمحمد
على وانتظموا فى تلك الصفوف ، فلاقوا فى القلعة الحتوف ؛ أم
كروجر فى بلدان الغرب ، لا فى ميدان الحرب ، يظن أن
الاقوام مُنقذوه من الكرب ؛ أو أحد سفراء الدول فى بكين ،
منذ اتفقوا على الثقة بالصين ؛ أم من هؤلاء المهوسين فى
البلاد ، الذين يطلبون حق السلطان « مراد » وآونة

(١) يشير إلى حادثة وقعت فى أيامه .

(٢) يعنى بالغز : الممالك .

يبايعون من شاءوا من العباد ، ويريدون من « عبد الحميد »
وهو الذى لا يجرى فى ملكه إلا ما أراد ، أن يصبح كهذا
الذى قال عن نفسه وأجاد :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلَّ مُمتنعاً عليه
وَتُؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء فى يديه ^(١)
قال الهدهد :

ولو أردت أن أحصى عُمى البصائر ، على ذكر الأعمى
بصادر ، لما استطعت أن أحصى نصف الناس ، على اختلاف
الأصناف والأجناس ؛ فبينما أنا مفكر حائر ، ماض فى الجؤ

(١) ينسب هذا الشعر إلى « المعتمد » أول من سلبت سلطته
من خلفاء العباسيين ! ويشير المؤلف إلى حركة المطالبين بالدستور
فى الدولة العثمانية .

طائر ، إذ طاف بي من الجوارح طائف ، فلم أدر إلا وأنا
بين جناحي خاطف وهو ينظر إلى مبتسما ويقول : لقد
أتعبنا الهدهد بالانتظار . قلت : وبذلك الأعشى في تلك الدار !
قال : أما الأعشى فرميسيس ربُّ هذا الملك ، وباني هذه
الدولة : عمى إذ بلغ به السكبر ، فكانت هذه أبلغ العبر ؛
وأما « بسادر » فمن الأسماء الدائرة ، وإنما رميت باستعارته
له إلى أن الدهر قد حكم فيه فصار كبعض الناس . قلت :
يا أسفا على ذلك الوعد ، ويا حسرتا على تلك الأمنية ! لقد
أخطأتني ما أملت من القدوم عليه ، وفانني مارجوت من
النظر إليه ! قال : ستجده أبصر في العمى وأسمع في الصمم ،
وتلفيه متلبساً بلباس الفتوة في الحرم ؛ فتعلم أني استأذنت
لك عليه وهو على عظمة من قوة الوجدان ، تعدل ما بلغ إليه
من عظمة الملك والسلطان .

وصاحب لي أعمى فداؤه المبصرون

يريك في كل قول وكل فعل عيونا !

قال الهدهد :

فقبلت حكم النسر ، ورضيت بهذا القِسم النزر ، وقلت :

قد آن أن ينجز مولاي وعده ، فإنى أخاف ألا أرى

رمسيس بعده ؛ إذ ما بعد العمى والصمم ، وتبالغ الهرم ،

إلا محتوم العدم !

فاستضحك الأستاذ ، ثم قال : الآن تقدم عليه ، فإذا

أقامك في الخطاب ، فبالغ له في التحية ، وشبّهه بكل قوى

في الأرض والسماء ، عظيم في الغبراء والزرقاء ، واتبع

في مدحته سنتنا معشر الشعراء ، من المصريين القدماء ؛ وقل

في قاهر الأمم الأربعين ، كما قلت في قاهر اليونانيين :

أمولاي غنمك السيوف فأطربت
 فهل ليراعى أن يغنى ويُطرب ؟
 فعندى كما عند الظبي لك نعمة
 * ومختلف الأنعام للأنس أجلب
 فإن الملك وإن أشرق وجه الأرض من ثنائه ، وامتلأ فم
 الدنيا من مدحته ، وسيرت ذكره الأشعار ، وبزت أعماله
 القائلين ، وتكاثرت مناقبه على الناظرين ، فما زال يهزه المداح
 وما انفك يطرب للإطراء ويرتاح !
 قلت : ستجدنى يامولاي من المحسنين .

وعندئذ حملنى النسر إلى القصر ، فدخلنا حجرة ليس
 أجمل منها فى الناظر ، ولا أجلّ منها فى الخاطر ، فى وسطها
 سرير فاخر ، وهو يزهر بالجواهر ، منضودة من الخشب
 النادر ، اضطجع فيه رجل يُغضى من مهابة ، ولا تثبت النفس

* البيان : coi و coi من : coi يقول الحق والحق
 أغلب ربيد ديه الله ؟ يا من تزيب (الوقت)

إزاء جلالته ، حفظ الزمن الغضاضة على وجهه النقيّ من
الشعر ، وعلا التاج منه رأساً ملء التاج ، وهو كالتمثال
له عينان ولا يبصر .

وكان النسر قد تمثل بشرا سويا ، واستأذن في الوصول ،
فاستقدمه الملك ، فحين نقل القدم في الحجرة العالية ، استقبل
مولاه مستجمعا من الخشوع ، غاضا من بصره من المهابة ؛
ثم قال : سلام من هوروس إليه ، سلام الآباء والأجداد
عليه ! أيها الشمس المضطجعة في سرير مجدها وضوؤها
يغشى البلاد ، ويبعث حياة للعباد ؛ هذا هدهد ناطق ، انفرد
في الآخرين بتقدّيس ذاتك ، والتمدح بصفاتك ، والبكاء
بعدك على رفاتك ؛ فاستحق أن يحسب على الغفائك .

قال الملك : لعله هدهدك السحري يا بقاءور !

قال : كذلك لقبوه في المدينة يا مولاي .

فالتفت رمسيس إلى كآنه يرانى، وقال : ماذا يُقال عنا
أيها الهدهد في زمانكم النكد ، وأيامكم السود ، وعهدكم
النُكر ، وسِنِيكم العِجاف ؟ وماذا يعلم عنا ذلك الجيل الصغير ،
والجمع المتفرق ، والعقد المتمزق ، والنسل الذى سمونا
بالبناء والحجر ، ولم نسمُ به فى يومٍ مُفتخر ؟
قال الهدهد :

فعمجتُ من حرص الملك على ذكره من بعده ، وكيف
أنه قدّم هذا الأمر على غيره فى ابتداء الحديث ؛ وعلمت أن
حب تخليد الذكر ، هو رأس المطالب العالية ، لا يتأسس
بناء فى المجد إلا به ، ولا تقوم شهرة ثابتة راسخة إلا عليه ؛
وحرتُ فلم أدر كيف أجيب ، أصدق الملك فأقول له إن
القوم ضيعوا عهدكم ، وأغفلوا ذكركم . وجادوا للأجانب
بكثير مما تركتم ، واتخذوا منهم النبّاشين ، واستخدموا منهم

الكشافين ، واستقدموا منهم العلماء الباحثين : أم أكذب به
فأمدحه وأطريه ، وأعلى ذكره وأغليه ؟

وكان الأستاذ قد نظر إلى نظرة مُغضب ، كأنه ينهاني عن
التردد ، فأنشدت :

رمسيس يا كلّ الملو كِ ويا جميعَ العالمِ
يفدى سليلَ الشمس كـ لُ مسلسلٍ من آدم ا
والنفثُ إلى النسر فرأيتَه يتهلل ، فعلمت أن قولي أرضاه ،
وأن الألفاظ جرت على هواه ؛ فأردفتُ بأن قلت : علمت
الأرضُ يا مولاي أنك خير من ملكها ، وأنجى من
سلكها ، وأفضل من تركها ؛ وعلم الأحياء أنك كنت
كالفلك لا تسكن ، وكالمنية لا تدفع ، وكالصخرة لا تستخف ،
وكالسماء لا تطاول ، وكالدهر لا تنام ، وكالنجم لا تعيا ،
وكالسيف لا ترّوى ، والدنيا لا تكره ، والحياة لا تملّ ،

وكالصباح لا تخفى ، وكالشمس لا تستزاد ، وكالسهام لا ترد ،
وكالبحر لا تزحم ، وكالذهب لا تراب ، وكالليث لا تنهاب ،
وكالطيب لا تسكنم ، وكالنار لا تدنس ، وكالعارض لا تعارض ،
وكالريح لا تسابق ، وكالطود لا تصادم ، وكالماء لا تعوقض ،
وكالهواء لا تستبدل ، وكالحق لا تغلب ، وكالسعادة لا تعادل ،
وكالسلامة لا تفاضل ، وكالبذر لا تواسم ، وكالليل لا يدري
ما تأتى ...

قال الهدهد :

وخالست الملك وجلساه النظر ، فوجدتهم منصبتين لما
أزخرف من الشئام ، ورأيت الفرس يزددان تهلا : فشجمني
ذلك على متابعة الخطاب ، فقلت : وعلو ايا مولاي عن
صباك أنك ملكك الدنيا فى رؤيا قبل أن تولد وأن تحيا ،
ثم ما جاوزت العاشرة حتى الملكُ بيدك ، والأيام من جُندك ،

والخير والشر من عندك ؛ فكنت في ذاك الصبا الغض
والعمر النضير ، وهذا الأمر النافذ والمالك الكبير ، مثال
الملوك المحتذى في كرم الخلال وحسن الأخلاق ، يأخذ
الكهول منك العلم ، ويتعلم الشيوخ منك الحلم ، وتغلب
النفس على شيمتها الظلم ، وتركب الحرب إلى السلم ...

هنا أطرق الملك هنيئة ، ثم رفع رأسه وأشار بوجهه
نحو أصحابه وقال : أتذكرون إذ أزعج الجيوش وأنا طفل ،
وإذ مثلوني التاج فوق رأسي وأصبعي في فمي أوكها كما يفعل
الصبيان ؛ أتذكرون إذ لبست التاج في الهيكل الطيبي وأنا
صبي ، كالشبل الليدي ؛ من رآني قال : لن يكبر هذا ولن
يغمى ولن يهلك أبدا ؟ أتذكرون إذ نحن صغار نصارع
بالنهار وحوش القفار ، وإذ تجمعنا بالليل والعلماء المسامر ،
نأخذ من عليهم وآدابهم ، وتلقى عليهم الدروس النافعة ؟

أتذكرون إذ أسير في الأرض في سبعمئة ألف مقاتل ، وآونة
أركب البحر في عدد أمواجه من سفن القتال ؛ فملك
المعمور من أفريقيا ، وأخضعت المسكون من آسيا ، ونشرت
أعلامي على الأمم والشعوب ، ومألت من آثاري الشعاب
والدروب ؛ فلا جبل إلا لي فيه أثر ، ولا بقعة إلا لي
عليها حجر ؟

قال بنتنور : نذكر ذلك كله ، ونعلم أنه لم يتل ملك
مانلت من صنوف السعادة ، ولا أوتي بشر ما أوتيت من
بسطة الملك وامتداد السيادة !

قال : لكن وددت لو خلقت ابن راع ، أو أحد الزراع ،
في بعض الضياع ، وأنا لم أعرف الملك ولم أنل من معاليه
مانلت ؛ ذلك من أجل حادثة وقعت في حرب أمة الخيتاس ،
إذا ذكرتها وأنا في غاية السرور ، انقلب سروري انقباضا

وترحة ، وإذا خطرت على البال وأنا في ذروة المجد وأوج
 العظمة ، صغرت نفسي في عيني واحتقرت في خاطري
 واستحييت من الشمس أن ألقاها بوجهي ، وهي الملك
 المسوى القسَم بين الأحياء ، المنعم لهم بالحياة على السواء ؛
 وحديث تلك الحادثة أفنى أخرجت العدو يومذاك ، بعد أن
 أتم الآلهة لى النصره عليه ، فانساق بين يدي شيو خا ونساء
 وأطفالا ، وأنا أطاردهم وحدي ، فأيدهم بمركبتي تارة ،
 وبسهمي أخرى حتى صادفوا في طريقهم غابة ، فاستعصموا بها ،
 فولجتها عليهم ، وجعلت أصطادهم في أعالي الأشجار ، كما تُصطاد
 الطير في الأوكار ، غير راثٍ لحلمهم ، ولا راحمٍ ضعفاءهم ،
 وكان فوق شجرة هناك رجل شيخ أعشى قد تسلقها ، وجذبه
 حب الحياة فعانقها ، فرميته بسهم فأصابه ، فصرخ قائلاً :
 « أعشى أصاب أعشى يارمسيس ! » ثم سقط يتخبط في دمه ،

فامتنعت من فوري عن متابعة الفتك ومواصلة البطش ،
وكانت نجاة البقية الباقية من أولئك الفارين الضعفاء ، على
لسان ذلك الشيخ الأعمى ، الذي ما وعظني منذ كنتُ غيره ،
ولا عرفني قدرَ نفسي سواه ؛ والآن أحسَّ كأن السهم رُدَّ
إلى مُرسله ، وأن ذلك الأعمى أصاب هذا الأعمى ؛ فيا أيها
المعمرون بعدي ؛ لاتغرنكم الأيام ، واتقوا سهام الانتقام !
ثم حول الملك وجهه إلى وقال :

وأنت يا صاحب النسر ، وشيطانَ الشعر في عصرٍ غير
هذا العصر ، اعلم أن المجد والعِظم في الدول والأمم ، ينتهيان
إلى بُناة الفسطاط ، وأنهم خيرُ من ورث النيل بعدي ؛
ظلمتُ وعدلوا ، وتطرفتُ واعتدلوا ، وأسرتُ وأطلقوا ،
واستعبدتُ وأعتقوا ، وخلدتُ بعدي الحَجَر ، وخلفوا بعدهم
السَّيرَ ؛ ذهبت الديانات ودينهم هو الدائم ، وبادت اللغات

ولسانهم في مصر قائم ؛ وأريدت كل أمة في وادي النيل ،
وذكرهم فيه سالمٌ جميل ؛ وشقى الغريب فيه بغيرهم ، وغمر
من أول يوم بخيرهم ، واستوى السوق والمملك على عهدهم ،
وماتساويا من قبلهم ولا من بعدهم ؛ وتكافأ في مصر الخليفة
والعامل ، حتى لا أدرى أيهما الرجل العادل والإنسان
الكامل . وإن الذي استنزل روحى من عالم الراحة الكبرى
بعد ثلاثين قرنا أو تزيد ، وسلط على من روجه ما يوجد
القديم ويبعث الرميم ، وحاز لك الدول منذ التأسيس ،
والمواك من منا إلى أمازيس ، في منفيس ، على عهد رمسيس
— لقادر على أن يريك الفسطاط وأهلها ، ويشهدك تلك
الدولة وعدلها ، وأمة العرب وفضائها ، حتى إذا قستها بمن
قبلها ، قضيت عليها أولها .

قال الهدهد :

نخشيت أن تنقضي الرؤيا ولما أظفر من ملك الملوك
بموقعة ؛ فقلت : أيها الملك ، إن بيتنا لرحماً مبلولة لم تيمس ،
وإنك لمجد هذه الأمة أولاً وأخيراً ؛ فهل نصيحة عالية
نسمعها منك ، وموقعة عالية نحفظها عنك ؟

قال : عليكم بالإقدام ، فإنه مفتاح الغنى ، والطريق المختصر
إلى العلياء ، والسلاح الأَمْضَى في معترك الأحياء ، به سُدت ،
وعليه اعتمدت فيما أسست وشِدت ؛ وإنه ليخرج أصحابه
من غمار العامة إلى عليا مراتب الملوك ، ومن هُون الخنول
إلى العز والسُودد والذكر الجميل ؛ ولو لم أكن ابن « سَيْتِي »
وعنه ورثتُ ملك الدنيا ، لمسكنتها بالإقدام !

قلت : زدنا منِعاً يا مولاي ؟

قال : قاوموا الظالم ولا يغرنكم ماترون من قوّته وبأسه ،

فشله كالأسد : لا يزال يفترس حتى تفترسه نهيمته !

قلت : الثالثة يا مولاي ولا أزيد !

قال : احفظوا أنفسكم وضيئوا ما شئتم !

قال الهدد :

وعندئذ تشاب النسر ، فتشأب الملك وأصحابه على أثره ،
فالتفت إلى الأستاذ فرأيته يغالب الكرى ، وسمعته يقول
كلمته المعتادة : إذا جاء الليل ذهب الشياطين ؛ فإذا كان
أصيل الغد فالقنى على « المعاهد » .

وعند ذلك تبدل الزمان والمكان ، فخرجت من مسك
الشیطان ودخلت في صورة إنسان ، وقد ضمني مبيتى بحلوان .

المحادثة العاشرة

قال الهدهد جارُ الأثر، ونجى الحجر، يتطلبُ فيهما
العبر، ويأخذ الخبر عن غبر:

ولما أصبحت أعدت أمس في يومى، كما يفعل قومى؛
فباشرت أشغالا لا تنفع، وأخذت بأعمال لا ترفع؛ وأكلت
كأسمى، وشربت كالبارحة، ولقيت الوجوه المألوفة،
وجلست المجالس المعتادة، وقرأت جرائد مشحونة
الصفحات، أفكهُ ما فيها الإعلانات!

إذا أنت لم تحي الحياة كبيرة

ولم تُبقِ ذِكْراً في البرية خالدا...

... وعشتُ مُعيد الأُمس في اليوم خاملا

فقد عشت يوماً في الحقيقة واحدا!

إلى أن سرى الأصيل ، فتنقلت من شاطئ إلى شاطئ ،
ولفظتني ضفة إلى ضفة ؛ وكنت أخذت من كلمة السر في
صرفي ، وما رَسَم له ربُّه من الوقوف بي على الفسطاط ،
والإشراف بي على معالمها ، واطلاعي على مواكب دولة
العرب فيها — أن بساط الرؤيا قد انطوى فيما يتعلق بمنف
والدول الأولى ، وأنا قادمان على الفسطاط ، مستقبلان
وجوه العرب ، وافدان على هذه الدولة التي وصف الرشيد
ما كانت عليه من انبساط الظل وامتداد النفوذ واتساع
المملك والسلطان ، في قوله لغمامة ظللته ولم تمطر ، وكان يرجو
أن يستدفع الحرَّ بمطرِها : « أمطرى حيث شئت فإن
خارجك سوف يُجبي إلى ا » ، وفي ضوء هذا الفخر سرى
الاسبانيون في أيام دولتهم ، حيث زعموا الشمس لا تغيب
عن أملاكهم ؛ ثم زالت هذه الكلمة عنهم إلى الإنكليز ؛

فهى آية ملكهم اليوم ؛ ثم ترثها أمة غيرهم ؛ مُنَّه الله فى خلقه ،
يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

قال : فلما صرت فى منف ، رأيت الدهر قد جعل عاليها
سافلها ، وصيرَّها كبعض القرى ، ولم يبقَ عليها من أنقاض
ذلك البنيان الباذخ ، وبقايا تلك العمارة الكبرى ، إلا آثارها
هنا وهنا ؛ منها القائم وكان قاعداً ، والقاعد وكان قائماً ، وبعضها
مشوّه فى أحسن محاسنه ، منقوص من أطرافه ، أو مفقود
تفتش عن مكانه لا تجده ؛ ففعدت أعجب للدهر كيف طال
على ذلك الطول ، وعلا فوق تلك العلياء ؛ وأنقصى النظر
فأرى قصور الرومان موحشة مهجورة ، وكانت بالأمس
أهلة معمورة ، أخنى عليها الذى أخنى على منازل الفراعنة
من قبل ؛ وأنظر أكواخ الفلاحين تموج بلسانهم وصغارهم
كبيوت النمل ، وقد سكنوا إلى الدولة القائمة كما سكنوا إلى

الدول من قبلها ؛ فأقول في نفسى . هكذا الحكماء وإلا فلا ،
فلو رُدَّ أمير المؤمنين على رضى الله عنه إلى الحياة ، وهو
أزهد خلق الله فى الدنيا ، لما أخذ حقيقة الزهد إلا عن
هذه الأمة !

وبينما أنا أنظر حولى بعينٍ تعتبر ، وأخرى تستعبر ،
إذا صوت النسر يستسيرنى إليه ، فوافيته ، وكان عند قدمى
رمسيس وهو من حجر ، وعهدته بالأمس عند رأسه وهو
بشر مُخْتَصِر : فابتدر خطابى يقول : ما بال الهدهد يستعبر ،
أبيكيه من الأيام أن تنصرف بالأنام ، ورعاها تطحن على
الدوام ، وسيفها على رقاب الأقوام فى الحرب والسلام ؟
انظر يا بُنى إلى الحسد كيف حمل الأمم على الإزراء
بالقوم بعد اندثارهم ، والعَيْثُ فى ديارهم ، والعَبَثُ بآثارهم ،
وهدمِ البقية الباقية من منازلهم : فقاتلوا الحجر ، وحاربوا

الأثر ، وسبوا التماثيل والصور ، ودخلوا على الأموات
الحفر ؛ ولو استطاعت إحداهن أن تدعى صنعا لبعض هذه
الآثار لفعلت ، ولا مثلات منها فارس ، فأتينا ، فروما ؛
فقد صدر عن الرومان أنهم كانوا يستعيرون رؤس التماثيل
بما ترك اليونان ، لأجسام مما صنعت أيديهم ، وبالعكس ؛
ثم يؤهمون أن الكل من عملهم ، وهذا عند ذكر السرقة
غاية . أتى على شيطاني يا بني عشرون قرنا يجاور الآثار ،
ويندب على ظلول الديار ، وهي نهب بيد البلي والدمار ، فلم
أعهد أن أيدي العائين انتفضت منها ، وأكف المخربين
انكفت عنها ، إلا منذ هبط العرب أرض مصر !

<

قلت : إنك لتطري القوم يا مولاي !

قال : وإنهم لأهله يا بني ، فما حكم بين الناس أعدل من
عمر ، ولا سادهم أفضل منه ؛ ولئن صدق أن في القول شيئا

من القائل ، فعمرو هو الإنسان الكامل ، حيث يقول :
« رأيت جميع البرِّ فلم أرى برًّا أفضلَ من الرحمة ا ، والرحمة
في اعتقادي أعلى مراتب الأخلاق ، وقد جازت بعض الأنبياء
في بعض الأمر ولم تجزْ عمر في شيء منه ا

قلت : إني إذن لسعيد يا مولاي أن أعلم من أمرهم
بالمشاهدة والعيان ، ما أضيفه إلى معرفتي في التاريخ .

قال : لانزال في إجلالهم ووقارهم ، والاعتناء بأمرهم ،
والنظر فيما يأتون ويذرون . والسكون إلى ظلمهم في مصر ،
حتى يقتلوا عثمان ، ويفتك المصريون منهم بالوقور في
الصحابة ، الكريم في الأصهار ، السمع في الخلفاء ، الكبير
في الشيوخ ؛ فإذا فعلوا ودّعنا أيامهم ، ونبتنا جوارهم ،
وكلناهم إلى السماء تأخذهم يدهم ، فتصب عليهم المصائب ،
وتنزل بهم الحن ، وتغمسهم في الفتن ، وتبدلهم من الخلافة

الحقة بالملك الباطل ، وتردهم إلى نعيم الدنيا الزائل !
قلت : لقد رضيتُ بما رضيتَ لي يا مولاي ، وحسبي
أن أعيش يوماً واحداً في خلافة عمر ، وولاية عمرو !
قال : الآن نهيأ للزيارة ، ونستعد للخروج إلى مقر
الإمارة ، فسطاط الأمن والعمارة ؛ ضالة عمرو التي طالما
نشدها ، ولم يألفها طالباً حتى وجدها .

قلت : أشبه الناس به مسعاة يامولاي في الزمن الحاضر ،
اللورد كتشنر ، حاكم السودان بالأمس ، وسيف انكائره
العامل في جنوب أفريقيا اليوم ؛ فقد علم الخاص والعام ،
عن هذا الرجل المقدام ، أنه نظر في أمر فتح السودان ، وهو
ضابط ضئيل الشأن ، قليل المكان والإمكان ، ليس له بمثل
هذا الأمر العظيم يدان ؛ فجعل يعدُّ له الصبر ، ويعمل له في
السر ، والأيام في هذه الأثناء ترفعه ، والسعد إلى السعد

يدفعه ، حتى انتهت إليه إمرة الجيش في مصر ، وآلت إليه
السلطة العسكرية في هذا القطر ، وأصبح من رفعة المنصب
بين رجال الاحتلال ، بحيث يُسمع صوته في قومه ؛ ومن
علو الكلمة في الحكومة المصرية ، بحيث لا يُمانعُ في أمر
يحاوله ؛ فثبت عندئذ في نفسه أمر ، وتدرج فيما يحاول من
السر إلى الجهر ، وكشف الحكومة الإنكليزية بما يريد من
فتح السودان ونشر العلم البريطاني في أرجائه ، فكانت
مشيئتها ما شاء ، كدأبها يازاء رجالها الأتقاء ؛ وها قد مضى
على السودان عامان ^(١) ، يخفق على دور الحكومة فيه
العلمان ، ويخفق من الحسرة عليه فؤاد « مرشان » ^(٢) .

-
- (١) في هذه العبارة ما يشير إلى التاريخ الذي أنشأ فيه المؤلف
كتابه ، حوالى سنة ١٩٠١ وستأتى إشارات آخر ،
(٢) القائد الفرنسي في يوم « فاشودة »

١٨٩٨ فتح السودان وفلاحه

قال : كذلك زَيْنَ عمرو و لعمر ففتح مصر ، وكذلك فتحها ؛
والتاريخ — كما قيل — مكرّر معاد ؛ وقد حدثك رمسيس
عن الإقدام ، وذكر لك فضله وشرح لك مزاياه ، وهذان
دليلان قاما عرّضاً في الحديث على صدق قوله ، وصواب
رأيه ، وما كان رمسيس ليعرف الشوق ولا الصباية ، لولا
أنه كابدهما وقاسى ، وكان في مقدمة رجال الإقدام ؛ فإن
أردتم ببنيكم خيراً ، وضعفت قلوبكم أن تتبادوا في الجناية
عليهم ، فرّبوهم منذ الصغر على الإقدام ؛ فإنه — كما قال
رمسيس — سعادة الأفراد وحياة الأمم .

قلت : أوشك الأصيل ياه و لاى أن يفيض ذهبه ؛ فإن
أمرت انتقلنا إلى الفسطاط ...

قال : تلك مقدمة لم يكن لنا عنها غنى ؛ والآن لك أن
تطير معى إلى حيث الإسلام يحكم ، والأخلاق تسود .

قلت : إن أذن مولاي بدلنا هذا الزّي بغيره ، لنأمن
نظر الرماة ، وزجر الجماعات .

قال : الناس والطير وهذه الحجارة — وأوما إلى الآثار —
في كلامه رجل يتقى الله في السماء ، ويخاف عمر في الأرض ؛
فلو نالنا أحد في حمامه بظلامه ، لفرعنا بالشكوى إلى صاحب
الإمامة ، ولأنشدناه « جاءت سليمان الزمان حمامة ! »
على أنه لا بأس بتغيير الزّي ؛ فأيهما تختار : آلقبطي ،
أم العربي ؟

قلت : الثاني يا مولاي ؛ لأنه لباس الفاتح ، وشعار
الحاكم ، ينبئ عن عزّ الملك ، ويخبر عن سناء الدولة ، وقد
خلفت جنود « الملك إدوارد » في مصر يتنحى السراة لأحدهم
حتى يعبر كأنه في رداء « ولستون » ، أو مطرف « نابليون » ،
وإن مسّت طرف ثوبه يد مسها السيف !

قال هذا ليس شأن عمرو وأصحابه في مصر، فهم المؤمنون :
العزة لهم ولمن في ظلهم بالسواء ؛ وقد كان الرومان قبلهم
كمن ذكرت من الإدلال على هذه الأمة ، والمرح في هذه
الأرض ، على ما بينهم وبين القبط من مودة في الدين ورحمة ؛
فكان الصليبُ يعلو على الصليب ، والناقوس يخرس
الناقوس ، والكنيسة تزي بالكنيسة ؛ وكان مذهب الرومان
في عبارة المسيح هو الدين كله ، وما سواه فضربٌ من
الهديان يُستخر من أهله ويُعتدى على أصحابه ؛ وكان الأمير
في القبط يحكم فيه سوقه من الرومان ، وكانت الحكومة
الكبرى في روما عمياء عن هذا الظلم المبين ، صماء عن تظلم
المصريين ، إلى أن قدم العرب مصر ، وتم لهم على الرومان
النصر ، واطمأن عمرو بالولاية ، وسكن أولئك البؤساء إلى
حكومته السمجاء ، ودخلوا في الإسلام أفواجا ، يحببه إليهم

تَسْمَحُ العرب ، وتحلم زعيمهم ، واجتماعهم على كلمة
الإسلام ، وتساوهم فيما جاء به من الأحكام ، وكونه بينهم
كالحقيقة لا تقبل الانقسام ، ولا يجادل فيها الخاص فكيف
العام ، وأن سيرة العامل وأصحابه فيهم هي أقرب مما أراد
المسيح عليه السلام من الناس : أن يتساوسوا ، ويتصافحوا ،
ويتعارفوا ، وأن يكونوا رحماء بينهم ؛ وأبعد عما أراد
القسوس بالناس منذ القدم ، من شغب التذهب ، وفتنة
الانقسام والتفرق إزاء الحقيقة الباهرة . العرب في مصر
بضعة آلاف ، وفيهم المقاتلة ؛ فكيف فتحوا ، ثم كيف
أصلحوا ، ثم كيف وطدوا فيها بنيانهم ، وعللوا أهلها
لسانهم ؛ ثم كيف استأصلوا الوثنية من هذا الوادي ،
وزحزحوا منه النصرانية ، وأرسوا فيه الخنيفية ؟ كل ذلك
في أيامهم الأول ، بل في حكومة ابن العاص . إذا أضفت

إلى ذلك أن الدعوة إلى الإسلام لا تقوم على الحول
والحيلة ، علمت أن العرب تعلموا حقيقة ثم علموها الناس ؛
فكانوا حينما استعمروا من الأرض كالمصباح النقي ، يحمل
النور البهي .

وإذا الديانة لم يَضنها أهلها

خفيت خفاء النور بعد ظهور

أخفاء مصباح حواه فاسد

فالذنب للمصباح لا للنور !

قلت : أرى الحديث فتح بعضه بعضاً يا مولاي ؛ فماذا
أخبرت لنا من الزّي ؟

قال : قد انتدبنا يابني للنظر والاختبار ، واستقراء أحوال
العرب في هذه الدار ؛ فما لنا لا نتلبس بلباس المحكوم ،
وتتردى ثياب المؤتمر ؛ لكي ننظر بعينه ، ونسمع بأذنيه ؛

فإن كان شقيا بدولة القوم ، تعباً بحكومتهم ، عرفنا ذلك
بالخبر لا الخبر ، وشفعنا له عند عمرٍ وأومر ؛ وإن كان
ناعماً في ظلمهم ، راضى العيشة على عهدهم ، أخذنا بنصيب
من حاله ، ووقفنا على حقيقة أمره ؟

قال الهدهد :

وبينما نحن في الحديث لم نبرح المكان ، هتف هاتف
بالأذان ، ودقت بالناقوس يدان ، فلم أدر إلا ونحن على
الفسطاط في زى قسيسين من الأقباط ؛ فضحكت من نفسى ،
وعجبت لاختلاف يومى وأمسى ، والتفت إلى النسر فرأيت
يبتسم كذلك ؛ فتمثل بهذا البيت من الشعر ، وهو من
قصيدة لى فى مديح العباس :

قد بشر الناقوسُ بالمسلم الـ
معادلٍ من قبلِ بشر الأذانِ

قلت : هذا مما حَلَّيْتُ به العباس يا مولاي ، فكيف
نزعته عنه وكسوته عمرًا ؟ قال : بضاعة عمرو رُدَّت إليه ؛
فلا والنفس والخلود ، ودين الآباء والجدود ، ما فُتِحَ لأبوة
العباس في مصر إلا بسرَّ هذه الراية ، ولا دخلوها إلا بعِزُّوا
هذه الآية ؛ على أن الشعراء كثيراً ما يمدحون زيداً ويعنون
عمرًا ؛ وقد صدق صاحبنا من حيث كذب في قوله :

٣

وإن جرَّت الألفاظُ يوماً بمدْحَةٍ

لغيرِك إنساناً فأنت الذي تعني (١) !

قلت إنك لتزري بأصحابك يا مولاي !

قال : ما كانوا إلى أصحابا وهم ينزلون بالشعر عن رتبته ،
ويجعلونه حيث لا يرضاه الأدب ، لا يمدحون محمداً ،
ولا يهجون مذهباً ، ولا ينظمون في الطبيعة والتاريخ اللذين

(١) الشعر المتنبي .

هما أم الشعر وأبوه ؛ ويخلطون كلمة باقية ، وأخرى فانية ؛^(١)
هذا صاحبك الذي سَيَّرَ الأمثالَ حِكْمًا وَالْحِكْمَ أمثالًا ، وجرى
في الشعر إلى الغايات فسبق السابقين وبز القائلين ، يقول
هذه الحكمة العالية ، ويرسل هذا المثل المحكم :

بِذَا قَضَيْتِ الْيَوْمَ مَا يَبِينُ أَهْلَهَا :

مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد^(٢)

وتراه يقول بعد ذلك :

نَهَبْتُ مِنَ الْأَعْمَارِ مَالُو حَوَاتِيهِ

لَهَنْتُ الدُّنْيَا بِأَنْكَ خَالِدٍ^(٣) !

وما أحسن هذا الشعر والطف هذا التصوير ، لو لم
يتجرد فيه الشاعر من رقة القلب ورحمة النفس وكرم الشيمة ؛

(١) في هذه العبارة إشارة إلى بعض مذهب المؤلف في شعره

(٢) الشعر للمتنبي

فهو يبيع ممدوحه دماء العباد ، ويُملكه أعمارهم ، وينوه
بسفح الدماء وسفكها ، ويتمنى له بعد ذلك الانفراد بالخلد
الذى كرهه أبو العلاء لنفسه حيث قال :

ولو أنى مُنِحتُ الخلد وحدى

لما آثرت فى الخلد انفرادا !

فها هجر أبو الطيب الصناعة إلى الروحانية التى هى حقيقة
الشعر ورجاحة الموزون والمراد من المنظوم : والروحانية
لا تقوم على مثل هذه الجفوة والقسوة والغلظة ، لكن تكون
بمثل ما قال فى مثل هذا المقام :

رَقَّ أَيْهَا المولى عليهم فإن الرِّقَّ بالجانى عِقَاب !
تأمل يا بنى هذين البيتين ، وانظر كيف هدمت الصناعة
الأول ورفعت الروحانية الثانى ؛ وأقبح من بيت المتنبي فى
استباحة دم الأفراد ، بيته فى استباحة جماجم الملوك :

وجئني قربَ السلاطينِ مقتُها

وما يقتضيني من جماجمها السر

فما قتلة «كارنو»، و«همبرنو»، و«أليزايث»،

و«مكيلي»، وما اقتضتهم الفوضوية من صدور الملوك

والمملكات وجنوبهم وأحشائهم، بأشنع ولا أفظع ولا أبغض

إلى السماوات وما أظلمن، والأراضين وما أفلن، من نسر

صاحبك؛ وإني لأعجب للفوضويين كيف لم يهتدوا لهذا

البيت فيتخذوه شعارهم، أو يتخذوا فيه قرارهم!

قال الهدهد:

ورأيت الناس يهرعون إلى صلاة المغرب. فندمت على

ما فاتني من المشاهدة والعيان في هذه الزورة الأولى، وقلت

للنسر: قد كان لنا يا مولاي غنى عن أبي الطيب وحديثه،

والنظر في طيِّبه وخبيثه، لاسيما وهذا أول أصيل قضيناه

على الفسطاط!

فأخذ اللسر من عبارتي الغضب ، وقال : أحيثك عن شعر
العرب وشاعرهم ، ونحن قادمون على دولتهم في ابتدائها بمصر
فتزعم أنني حدثت عن الغرض ، وخرجت من الموضوع !
وما الشعر والبيان إلا عنوان الأمم ، يستدل بهما عليها .
ثم تشاءب اللسر وقال : موعدنا غداً مجلس عمرو ؛
فها هي إلا إغماءة ، ثم إذا أنا بجلوان .

المحادثة الحادية عشرة

المحادثة الحادية عشرة

قال الهدهد : وكان موعدي مع النسر أن نلتقي في مجلس
عمرو ؛ فلما كان الأصيل ، خرجت إلى الفسطاط ، في زى
قسيس من الأقباط ، كما سبق بذلك الاشتراط ؛ فحين
بلغت مدينة ابن العاص ، التي فتحها للإسلام بالرأى قبل
الفتح بالسيف ، وافيت مقر الإمارة ؛ وهناك ما كان أسهل
الوصول ، وأيسر الدخول ؛ رُفعت الحُجُبُ بين عامل
عمرو وبين الزمر ؛ واقتدى به وجوه العرب في سلوكهم ،
والناس على دين ملوكهم ؛ فاستقبلت مجلساً أليقَ بالوعاظ
والعلماء ، منه بالملوك والأمراء ؛ وقدمت على أمير تاجه
العمامة ، ومطرفه القباء ، وصولجانه السيف ، وكرسیه

التراب، وحاشيته الأصحاب، وقصره خيمة ممدودة الأطناب
يحيط به العرب وكأنه أحدهم، وهو زعيمهم في مصر
وسيدهم؛ وكان السر بين يديه، قد سبقني إليه، وهو يبالي
للعامل في الخطاب، ويلقى السؤال ويأخذ الجواب؛
فسمعتة يقول له: هذه دنياكم يا ابن العاص لا تغترون بها،
ولا تحفلون بحبها؛ وإنما لدنيا العقلاء، وطلبة الحكام؛
فكيف دينكم؟

قال: أسهل وأيسر وأسمح: الشهادة وهي كلمة، والصلاة
وهي عصمة، والزكاة وهي رحمة، والحج وهو حكمة؛
وما سوى ذلك فزيادة في العبادة، أو بدع تأتي بها الأيام،

وأعراض لا يصدأ بها جوهر الإسلام .

قال : نعمت الدنيا لو لم تزُل عن الخلفاء ، وتَوَلَّ إلى

الملوك والأمراء ؛ وحبذا الدين لو سلم من عبث الفقهاء ،

وعيث الجهلاء .

قال : وما يمنعك أيها القسيس أن تستقبل هذه الدنيا

وتدخل في هذا الدين ؟

قال : إني أتبع ديناً يقال فيه في جملة الدعاء : « إيزيس

لولم تتوحدى لما كانت الأشياء ، ولن تصل إلى حواشي

حجابك يد الأحياء ! ، فالمعبود إذن واحد ، وإن

اختلفت الأسماء .

قال : أى الأديان هذا ؟

قال : دين المصريين القدماء .

قال : عجبا ! فى مصر بقية من القوم ؟

قال : ليس للظالم دين يا ابن العاص ، والرومان قوم
ظالمون ، دخلوا هذه البلاد فأفسدوا فيها ، وهدموا مابنى
أصحاب المسيح عليه السلام بزهدهم وتجزئهم وتسميحهم ،
من بليان للنصرانية متين ، وركن للمسيحية مكين ؛ وغادروا
مصر لا تخلو من عاكف فى خاصة سريره على دين آباؤه
وأجداده ؛ وأنا من هذا الفريق .

قال : الآن أنهاك عن عبادة الأصنام ، وأمرك بالدخول

في الإسلام ؛ فيما أن تقبل ، ولما أن تقتل !

قال : القتل أحب إليّ يا ابن العاص ، ولكن لي كلمة

أقولها وأرجو أن تسمع لي ..

قال : هات .

قال : على التمسك بالدين قامت دولتنا القرون الطوال ،

ومن شدة التمسك به أدركها الزوال ؛ فذهبت من أجل

دهر ، ، وأمسيت إحدى العبر ، ولا أكره أنا أيضاً أن

أذهب على الأثر ...

قال الهدهد :

فلم أدرك بالاستاذ إلا وقد عاد سيرته الأولى ، فإذا هو

فسر يطير بين أعين القوم ، وهم من أمره في أعظم الدهش ؛
فلحقت به ؛ ومازلنا ننفذ الأفق حتى هبطنا ناحية من
الفسطاط ، فتمثلنا كما كنا قسيسين من الأقباط ، وهناك
التفت إلى وقال : كيف وجدتني وصاحبك ؟ قلت : ألان
لك وجه الأمر وخاشن آخره . قال : بالحق ألان ، وبالحق
خاشن ؛ لأن مقاومة الوثنية فرض على نصراء العقل وحماة
الحقيقة ، وقد تكفل بها الإسلام لسائر الملل . قلت : قد
كان لك غنى يا مولاي عن التكشف له ، وإطلاعه على
حقيقة معتقدك . قال : أردت أن أريك كيف يحفظ القوم
دينهم في الكبيرة والصغيرة .

عجبا لكم معشر المصريين ، أتم أمة التاريخ وليس
لكم فيه كتاب . هلا تشبهتم بأبائكم الاولين ؟ فلقد كان
الواحد منا أحرص الناس على حديث بعده يؤبده في حجر
يشيده ؛ وذكر مع الزمن يخلده ، في أثر ينضده ؛ وكان
أحب الأعمال إلى ملوكنا وضع التاريخ وتدوين السير ،
لعلهم بأن التاريخ دليل الأمم ، ومرشد الشعوب ؛ وإن
قوما لا يعرفون ماضيهم ، لا يكون لهم بحاضرهم اعتناء ،
ولا في آتيهم رجاء ؛ أليس عاراً عظيماً على الشرقيين ،
وفيهم اليوم العالم الذكي ، والكاتب الأملح ، ألا يعلموا من
سيرة الأمير عبد الرحمن ، المتوفى بالأمس ، غير ماتنقله

صحف الغربيين ومجلاتهم...

ولم أنى أسترعيك لقضية لاتفتوت أهل النظر في أحوال
البشر ، والباحثين في طبائع الاجتماع .

قلت : وما تلك يا مولاي ؟

قال : يدهش الناظر المتأمل ، والباحث المدقق ، لما يرى
من التفاوت البين في الأخلاق ، والتباين الظاهر في الطباع
بينكم معاصر النازلين هذا الوادى في شمال أفريقيا ، وبين
أمة البوير سكان الجنوب ؛ وبحار فلا يدرى بأى الآراء
الثلاثة يأخذ ، وإلى أى المذاهب الثلاثة يرجع : أيزهد مع
القائلين بفعل البيئة في الأهم ، وتأثير الإقليم في الشعوب ،

وسلطان المقام على المقيم ؛ فيحكم أن جار الليث أسد ،
وجار العير وتد ؛ أم يجارى الذاهبين إلى أن اختلاف
الطباع ليس إلا نتيجة اختلاف الأجناس ؛ أم يعتمد على
رأى القائلين بأن العقل البشرى - وهو مركز القوى
المدركة في الإنسان - والنفس - وهى مهبط الفضائل
أو الرذائل فيه - ليسا إلا هبتين يشتركان فيهما أصناف
العباد ، وإن تفرقوا في أطراف البلاد ، وإنما يصح
العقل بالتعليم الصحيح ، وتقوم النفس بالتربية الحقة ؛
على أننى إلى هذا رأى الثالث أميل ، وعليه فى اعتقادى
المعول ؛ فعليكم بالعلم ، خذوه نافعاً دافعاً ، واحجروا منه

ما يمت إلى ما يحى ، واطلبوه لدنيا تعملون لها كأنكم
تعيشون أبدا ، أو لآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غدا ؛
وعليكم كذلك بالنزبية ، فإنها باب مدينة العلم ، لا تدخل
إلا منه ؛ خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها ، واطلبوها
لأنفسكم ؛ فإن كبرت عنها فلا بنائكم ؛ فإن لم تكمل لهم
كملت لأبنائهم من بعدهم ؛ وكونوا الحفظة الذين تكرم
عليهم بلادهم في الشدة أضعاف ما تكرم عليهم في الرخاء
ليكونها بالدموع آونة ، وفي القلوب آونة ، لا يغفلون لها
عن حرمة ، ولا يقصرون لها في الخدمة ، حبها لهم العشق ،
لالتفات فيه إلى ملامة ، ولا قيمة معه للسلامة .

أعمار الأفراد قصار ، والأمم طويلة الأعمار ؛ وآمال
الواحد الفرد تفوت بموته وآمال الجماعة لا تفوت ، وإنما
هى لهم مثل الورق للشجر : يُنزع حيناً ويكساه حيناً ؛
وما بنى قوم بناءهم فى المجد ولا قامت سعادة أمة ، إلا على
العلم والتربية ؛ وهما إنما يحصلان فى المدرسة ، وليس
ما يمنعكم من إنشائها ؛ فإذا أنشأها غنيكم غير مسرف ،
ودخلها الكهل بالليل غير مستنكف ، ولزمها الصبي بالنهار
غير متكلف ، وأخذتم العلم فيها كما يريد زمانكم الذى أنتم
مخلوقون له أن يؤخذ ، فقد استقبلتم الحياة من وجهها
الحق ، وأخذتم فى التقدم العصري بالسبب الاوثق .

اللغة رأس مال الأمة فى العلم والعرفان ، والدين رأس

مالها في التربية والأخلاق ؛ فاجعلوا المحل الأول في
مدارسكم لهذين ، فالثمرات إنما تأتي بقدرهما . الإنسان إذا
علم كان إنسان العين ، وإذا جهل كان إنسان الغابة ؛ والعلم إن لم
يتأسس بالتربية كان لحامله محنة ، وللناس فتنة ؛ فاجمعوا بينهما
في الدار ، ثم في المدرسة ، ثم في الحياة ؛ تلك المدارس الثلاث
الكبر ؛ فأما الدار فالأستاذ فيها المرأة ، وأما المدرسة فالمعلم
فيها الرجل ، وأما الحياة فالمرء فيها الزمن ؛ فابدءوا بالنساء
فعلوهن في الصغر ، يعلمنكم في الكبر ؛ وربوهن في الطفولة
يربينكم في السكولة ، ولا تلتشوا مدرسة واحدة للرجال ،
إلا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء .

إذا اشتغل الحليم بالسفيه شارف على السفاهة ، وإذا
اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة ؛ وأكثر ما ينتشر

السفهاء والجهلاء ، وأشد ما يكون لإفسادهم وإيذاهم ، في
الأمم وهي في بداية نهضتها ؛ فمثلها عندئذ كالأنهار الكبيرة في
أزمة الفيضان : تسوق الأقدار فتساق بتيارها ، ويختلط
الخبيث بالطيب ، ثم لا تلبث أن تلفظ الفاسد وتستبقى
الصالح ، فينصلح الماء وتفيض الخيرات على البلاد والعباد ؛
فلا يثبطن لئامكم كرامكم ، ولا تلقوا للصغار بما يحدثون
بالأ ، واعملوا كل بما تعلم من علم أو صناعة ، وأتقوا العمل
فإن إتقانه يلقي عليه اليمن والبركة ، ويولد بين العاملين المنافسة
والمسابقة والمزاحمة ، وعلى هذا تقوم حياة الأمم ، كما تقوم
حياة الأفراد على دورة الدم . ليس بين ديب الحياة في الأمة
وبين ظهورها كاملة الأدوات تامة الصفات ، إلا مثل ما يخفق
فؤاد الجنين لأول وهلة ، ثم تمسك الحياة فيه بعضها بعضا
وينمى بعضها بعضا ؛ فلا تزال به حتى تخرجه إلى الوجود

فيؤدي فيه وظيفته ؛ ويستوفى فيه برهته ؛ ولا أجد مثلاً
لما أصف إلا أمة اليابان ، وإنها لدليل حاضر ، وشاهد
معاصر ؛ على أن الحياة ربما كانت أسرع جرياً بالأمم منها
بالأفراد ؛ فقد جاوز اليابانيون أطوارها الأولى إلى هذا
الشباب المرجو الخيال ، المبشر بأبرك أعمار في المدنية
والحضارة ، في نحو ربع قرن من الزمن ؛ وهي برهة قد
لا تكفي الواحد من الأفراد ليبلغ في الصبا أملاً ، أو يحسن
في الحياة عملاً ..

قال الهدد :

كان النسر يتكلم وكان كلامه حديث الجبينة ، تأخذه
الأذان ، وهو يأخذ الوجدان ؛ بيد أنه حكم غرراً ، وحقائق
كبر ، تستوجب النظر ؛ حتى أمسك عن الكلام فوددت
أنه لم يمسك ، وقلت له : لو خيرت يا مولاي فيما أريد

لما اخترت إلا أن يبعثك الله فتمشي في القوم خطيبا هاديا ،
وطيبيا مداويا ، تتبع أقصى الداء ، وتصف عزيز الدواء .

قال : ليكون لي ولكم شأن يوم تجمعنا القاهرة .

قلت : ومتى تدخلها يا مولاي ؟

قال : يوم يُقتل عثمان ، ويصير أمر العرب من الخلافة
إلى الملك : فهناك أنفض يدي من دولتهم ، وأصدر بك عن
الفسطاط وأرد القاهرة ، عاصمة مصر الحاضرة .

ثم أخذت النسر الإغماء المعتادة ، فتشاب وقال كلمته
المألوفة : إذا جاء الليل ذهب الشياطين ، وموعدنا غداً
دار العجوز .

وأصابني مثل ما أصابه : فما هي إلا غمضة عين ثم انتباهة ،
حتى رأيت الفسطاط أطلالها ، وحاذيت في القطار تلالها ؛
فعجبت للحال وتحولها ، والروح وتنقلها ؛ وأخذت في نفسي
على النسر هذا الرجوع إلى الخلط في المواعيد ، وإتعاي
بدار العجوز أنشدتها ولا أنشدتها :

أهلا بدار سَبَاكَ أَغْيَدَهَا

المحادثة الثانية عشرة

قال الهدد :

خرجت في أصيل الغد إلى الفسطاط ، في الحلة التي
قضاها الشيخ لي واختارها ، وأنا لا أعرف العجوز ولا دارها ،
ولا أدري كيف أملك مزارها ، أو أجد من يتحدثني أخبارها ؛
وأنكر على الأستاذ هذه التعمية ، وأعدله على اختياره النعت
على التسمية ؛ فجعلت أمشي قلقاً في هذا البلد ، غريباً في ثيابي ،
تزدحم شفاه العامة على يدي بالتقبيل ، ويتنحي الخواص
حيث أسير ، وأنا أغبط في نفسي رؤساء الديانات بهذه
المكانة في النفوس ، وأحسد لهم على هذه المنزلة في القلوب ،
وأنظر سلطان الرغبة كيف يعلو على سلطان الرهبة ، وأرى
الملك الكبير لمالك السريرة لا السرير ؛ وقد راقني وأدهشني

أنى لم أر عربيا ظهر لقومه ، أو للمسلمين من أهل البلد ، فى
مظهر رئيس روحى ، أو مسيطر دينى ، وفى الفسطاط كثير
من صحابة النبى الذين يُتَعَلَّمُ الدينُ فى بدايته منهم ، وتؤخذ أصوله
على حقيقتها عنهم ؛ بل وجدتهم كسائر العرب فى مصر :
جنود الخلافة ، وأنصار الإمامة ، وأعوان الحكومة
الإسلامية ، يعززون الإسلام آونة بالجهاد ، وآونة بحسن
السيرة فى العباد ؛ لا يلتمسون الكرامة ، فى تكبير العمامة ؛
ولا يؤسّم أحدهم بولاية ، وهم مصابيح الهداية ، وعلى عهدهم
ظهرت الآية : دائِبُونَ فى خدمة الدين لا يألونها صبورا ،
يغترّبون من أجله ، ويقاطعون الدنيا فى وصله ، ويعلمون
بض الأيادى وكرائم الصنائع فى أعناق الأئمة من يأتى
بعدهم : قدم فى الشام ، وأخرى فى العراق ، ولواء فى سماء
النيل خفاق ، ويدّ لها بالأمر فى الروم انطلاق ، وحكومة

تنتظم سائر الآفاق ؛ وهكذا العلماء لا يُغنى عنهم عليهم ،
ولا تثبت لهم هذه الصفة العالية في نظر الجماعة ، حتى يجمعوا
بين المدارك والهمم ، وتنقاد بأزمته الحياة العملية في الأمم ،
يرشدون الناس بالعلم مرة وبالعمل مرارا ، ويعرفونهم كيف
تطلب الدنيا بالعقل ، وتركب الحياة إلى الحيا السهل ، وتنزود
النفوس من المجد والفضل

للعلم أهل ليس يألونه أخذاً ورَدًا في شئون العباد
لهم مُراد لا ينالونه حتى ينالوا غايي الاجتهاد
العلم في أنواعه كلها والعمل الموصول فيما أفاد
في خلفاء الله من قبل ما ينميك أن العلم للخلق هادٍ
كانت تفيض الأرض من عليهم

في الحكم أو في الوعظ أو في الجهاد
فأباله أصبح يحمله ، من لا يبذله ؛ وصار يدعيه ، من

ليس يعيه ؛ ومال المسلمين مختلفين فيه : فريق يرى النافع الرافع
منه ما كان مقصوراً على الشريعة ، منحصرأً في فقهاها ،
مردوداً إلى المذاهب الأربعة فيها ؛ والتقى النقي من هذه الفئة
من عادى لغات الغربيين ، وهي التي يُنهى بها فينا معاشر
الشرقيين ويؤمر ، واحتقر علومهم وفنونهم ، وهي التي
نفاضل بها فنفضل ، ونقاوم بها فنخذل ، وتقتلنا كل يوم
بلا قتال ؛ وفريق يهجرون علوم الدين وآداب اللغة العربية
إلى لغات لم تجر بها ألفاظ آبائهم ، وآداب لم تقم عليها حياة
أجدادهم ، ولم تؤلف بعد في بلادهم ؛ وإن أمة لا تجتمع على
لغة ، ولا ترجع إلى جامعة من الآداب القومية ، ولا رابطة
من الأخلاق المالية ، ليست على شيء من الحياة وإنُجمعت
فيها معاني الفضائل :

أرى جوامع الشعوب أربعا أمرهم بدونها لن يجمعوا

الدين في آدابه مُتَّبَعًا والجنس لاحتما ولا مُضِيَّعًا
والعلم يهديك إلى مانفعا ولغة يفهمها من سمعا
تكون في الغالب والعلم معا

قال الهدهد :

وما زلت في تنقل واستقراء ، وتجوّل واستجلاء ،
ومشي على قلق وعناء ، حتى أعييت بضالتي إطلباً وسعياً ،
فصحت : لا نشدتُ تلك العجوز ولو أنها الدنيا . وهناك
مرت يد على كتفي ، فالتفت فرأيت النسر يعتذر عذر البرى ،
وسمعه يقول : نعم هي الدنيا وأنت في الطلب ، وستراها
وتسمع حديثها من كذب . فقضيت من مقالته العجب ،
وقلت : إذاً أغفر لك إبطاءك ، ولا أستنكر استهزأك ؛
ومن لى أن أجمع بفاتنة الأنام ، التي مارويت إلا في
الأوهام ، ولا تمثلت إلا في الأحلام ؟

قال : وهذه دارها . وأشار إلى خربة على الطريق من
بقايا الرومان .

قلت : وما يلجئها إلى هذا الانعزال والاستتار ، ولو شاءت
لسكنت الأسماع والأبصار ؟

قال : ليس لها إلا ما تسترد ، وشيئتها أن تسترد النعم ،
حتى تحولها إلى نقم ، تعطى القصور عالية . وتأخذها
أطلالا بالية .

قلت : ونحن نتقدم إليها الآن يا مولاي ؟
قال : أدخل عليها هذا الأثر ، وأنا على الأثر ؛ وتدلل
عليها في الخطاب ، ولا تخشها أنها في سجن ابن الخطاب .
قال الهدد :

فتقدمت وحدي حتى جئت بابا صغيرا ، فلم أطرقه بل
عالجته ، فانفتح من نفسه ، فإذا أنا لدى عجوز أكل الدهر

لحمها ، وأدق عظمها ، وجمع كالقوس جسمها ، وشيّب كل
شعرة في بدنها ، حتى شعرات في أذنها ، وهي تنوء بسلاسل
الحديد ، وترزح في أسرٍ شديد ؛ فضحكت من منظرها
وبادأتها بالخطاب فقالت : أيتها الأمة المضطهدة ، والعجوز
المقيدة ، كيف حالك وُحمر ، لقد انتقم منك للزمر ، ونهى
عليك بعد النبي وأمر ؛ لئن حبسك فطالما حبست رزق
الرجل الفاضل ، وقيدت نفس الحر العاقل ، ومَلَكتِ
الناقص رزق الكامل .

فاستضحكت العجوز ثم قالت : من هذا الذي شمت بجدة
الناس ، وأُم الكل في الأجناس ، إلا اثنين : ابن الخطاب
صاحب هذا الأمر ، وابن عبد العزيز عذر بني أمية لو قام
لهم عذر ؟

قلت : ولا ناس إلا من ذكرت ، ولا أناسي إلا من سميت !

قالت: لا يغرنك أيها الفتى أن الذل شعارى، وأناى عاجزة
 عن فك إسارى ؛ فوالذى سلطنى على عباده ليلوهم أيهم
 أصدق عزما، وأجمل صبرا، وأقصد إليه سرا وجهرا، ماملك
 عمر إلا الظواهر، ولى التسلط على السرائر، والسيطرة على
 الضمائر ؛ وليس هذا الذى ترى فى ملك ابن الخطاب من
 زهد فىّ، وتجنّ علىّ، وإساءة إلىّ، إلا غاية وتنقضى،
 وحال من أكرهه لا من رضى ؛ عمال فى مداراة الخليفة،
 يوجسون منه خيفة ؛ ورجال يلبسون لكل دولة لبوسها،
 يأخذون نعيمها ويذرون لبوسها ؛ زهاد فى دولة الزاهد،
 شياطين فى زمان الفاسد .

ويذنبنا نحن فى الكلام، دخل النسر فوقف بين المهابة
 للعجوز والإكبار ؛ ثم خاطبها فقال : أيتها الحاكمة فى البشر،
 من غير منهم ومن حضر، والآتى منهم والمستظر، ما لقيت
 من عمر فى ظلمات هذا الأسر ؟

قالت : أضيق الأمر ، وأعظم الأسر ؛ لكنها حال
تحول ، ونازلة عما قريب تزول ؛ ثم أفتك في هذه الأمة
فتكا ، وأصير هذا الأمر ملكا ، تقتل عليه القبائل ، وتتلاعن
من أجله البطون ، وتتفانى في طلبه الشعوب ؛ ولا أزال
كذلك حتى أشقى مرة أخرى في زمن ابن عبد العزيز ، ثم
يخلو لي الجو إلى الأبد ، وأحكم في المسلمين على الأمد .

قال : بحق عمر عليك إلا ما وصفت لي الأربعة الخلفاء .
قالت : أما أبو بكر فأخذني كما تؤخذ الإمام ، وخرج مني
خروج الأنبياء ، ضرب على يدي أن أفسد هذا الأمر حين
الفرصة سانحة ، والصفقة رابحة ، والأمة جاححة إلى الفتنة
جائحة . وأما هذا الذي أعذب في أسره ، وأبلو المزمع معاملته ،
فأشدهم إعراضاً عني ، وأكثرهم فراراً مني ، لم ير ضنى أمة تشرى ،
ولا قبل بي طريقاً إلى الأخرى ، ولا يزال حتى يخرج مني

خروج الأنبياء . وأما ابن عفان فأتقرب إليه بقرباته ، وأمهده
للفتنة تمهيداً في خلافته ؛ ولا أزال به أتنازعه أنا ودينه
حتى أزول عنه إلى علي ، أزهد الناس في ، وأكثرهم إساءة
إليّ ، يفضحني في كلامه ويقبّحني في حكمه ، ولا يرضى بي لنفسه
قسماً ، ولا للغير غناً ؛ ينافس في معاوية ، ونفسه عن رغبة
سالية ؛ ولا يزال يجعل همه في جمع أمر الأمة ، وحفظ
إمرة المسلمين في بيت النبوة ، وأنا أروغ بالنفوس منه ،
وأحيد بالقلوب عنه ، حتى يخرج مني وليس في يده من هباء ،
كما خرج من قبل الأنبياء .

قال الذر : فكيف أنت بمعاوية ؟

قالت :

فطن داهية ، مختلف في السر والعلانية ، لا يزال يهجرني
إلى الدين ويهجر الدين إليّ ، وهو في خاصة نفسه أحرص

الناس على ، يتسع من نعيمى لنفسه ، ولذريته من بعده ،
ويتخذ الآخرة طريقاً إلى وكنيت طريق السلف إليها ، حتى
اجتمع له ولآله وأعوانه ، ثم أزال عنه وقد استرقى لبني أمية
يصيبون بي خيراً كثيراً ، ويتوارثوننى ملكاً فى الأرض كبيراً .
قال : وأنت ظل الملك حيث كان كنت ، وأين سكن
سكنت . . .

قالت : أنا الملك والملك أنا ، وما نهض به فى الأرض
من آذانى بشامل عدله ، وسامى بحسن سيرته ، إلا زلت
عنه على عهده ، أو قاطعت ذريته من بعده ؛ وهذا هو السر
فى كون الملوك الصالحين العادلين فى التاريخ لم تستقم لأكثرهم
الحال فى أواخر حكمهم ، ولم يقم من عقبهم من أحسن
السلوك ، أو سار سيرة تليق بالملوك .

قال المدهد : . . .

ثم التفت السر إلى وقال : دونك أيها الهدهد هذه
الصحيفة الناطقة ، وهذا التاريخ المتكلم ؛ فسل ما شئت ،
واستفسر عما شئت ، من فائدة تستجليها ، أو حكمة تأخذها ،
فاستقبلت العجوز وأنا أعجب من حفاوة الأستاذ بها ،
وأستغرب منه هذه المبالغة في خطابها ، ثم قلت : صفها
آيتها الدنيا عن هفوتي ، وانسى لي جفوتي ؛ وخبريني أي
الناس أحب إليك وأيهم أبغض عليك ؟
قالت : أحبُّ الناس إلى أبغضهم إلى الله ، وأبغض
الناس إلى أحبهم إلى الله !

قلت : ومن أبغضهم إلى الله ومن أحبهم إليه ؟
قالت : أبغضهم إلى الله العالم المفتون ، وذو الصنع الممنون ،
ومؤمن يخون ؛ وأحبهم إليه العامل عن علم ، المتواضع في
رفعة ، العاقب على مقدرة ، الذاكر الموت المستعد له ؛ فهذا

الذى يرجى لعظيم الأعمال فى الدنيا، ولصالحها فى الآخرة .

قلت : عَظِيتُ أَيْتَهَا الْعَجُوزُ .

قالت : مُخَلِّقَتِ أَضِلُّ وَلَا أُدِلُّ ، وَأَفْسَدُ وَلَا أُرْشَدُ ؛

وما مَثَلِي إِلَّا كَالنَّارِ تَهْدِي النَّازِرَ مِنْ بَعْدِ إِلَيْهَا ، وَتَحْرِقُ

الْمُتَهَاوِثَ عَلَيْهَا .

قلت : أَى الْأُمَمِ بِكَ أَعْلَمُ ، وَأَى الْحِكَمَاءِ فِي وَصْفِكَ أَحْكَمُ ؟

قالت : الْأُمَّةُ الَّتِي جَاءَ فِي كِتَابِهَا الْمَنْزِلُ بِلِسَانِهَا فِي

جُمْلَةٍ وَصَفِي ، إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَالَّتِي يَقُولُ

فِي شَاعِرِهَا :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ

وَذُو نَسَبٍ فِي الْمَهَالِكِينَ عَرِيقٍ

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِيُبَيِّنَ تَكْشِفَتِ

لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

قلت : عرفيني بعض صفاتك ، وصفي لي شيئاً من آفاتك .
قالت : أنا المانحة المانعة ، الواصلة القاطعة ؛ أُقبل لاشاملة
ولا كاملة ، وأدبر لامندرة ولا معذرة ؛ صفوى عند كدرى ،
وكدرى عند صفوى ؛ أونس الملك فيشقى ، وأمنى السوق
فترضى ، وآتى الآمن المطمئن من حيث لا يتقى ، وأصيب
اللاهى الناعم فيما يؤنسه فى خاصة نفسه ، لاما يُظهر للناس
من أنسه ؛ السنة الناس فى سبى ، وقلوبهم مملوءة من حبي ،
يغالط بعضهم فى بعضاً وما أضمر أحدهم لى كراهة ولا بغضا ؛
من زلت عنه استعاد ، ومن اتسع منى استزاد ، ولا حى إلا
له فى مراد ؛ العاقل من أخذنى أخذاً ، أو نبذنى نبذاً ، ولم
يقف فى طلبى بين التمتع والجهاد ؛ فمن أخذنى فبالمراد الغزير ،
والجهاد الكثير ؛ ومن نبذنى فبالاعتقاد المستقر . والسلوان
المستمر ، لا يرغب مع الآخرة فى ثمين ؛ ولا يؤثر عليها

المال والبنين ، ومتى كان ذلك فله لا للتمني أن يقول :
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زیدی فی کراہتها قدما
قال الھدھد :

وكنت أصوب النظر في العجوز وأصعده ، فأراها
تلبس حالا عن حال ، وتصير من غايات القبح إلى نهاية
الجمال ؛ ثم نهضت من السلاسل والأغلال ، وتمثلت لي
وللنسر عادة كالمشال ؛ فلما رآها الأستاذ دق يداً على يد
وقال : قضى الأمر ، وقتل عمر ، واستقبل العرب الدنيا
واقبتلوا على الملك ، وجاءتهم الفتنة من كل مكان . قالت :
كذلك هم مُبذ الآن ، ولا أزال حتى أجمعهم على سب بيت
منه خرّجوا ، وفي ظله دبوا ودرجوا ، وبه ظهر عزهم ، وعليه
بنى ملكهم ؛ ثم لا أزال حتى يحكم فيهم من يُزري بالقرآن ،

ثم لا أزال حتى يغلبهم الحمل من العجم على أمرهم ،
ويسلبوهم ما بأيديهم ؛ ثم لا أزال حتى يتفرقوا في البلاد ،
ثم لا أزال حتى يُمسوا كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ويبقى
قرآنهم ولسانهم خالدين على الأمد ، منشورين إلى الأبد...
قال الهدهد :

ثم انطلقت الدنيا من أسرها ، وتركنا نقضى العجب من
أمرها ؛ فالتفت النسر إلى وقال : لا خير في هذا الأمر
بعد عمر ، ولا مقام لنا في ملك هذا الذي يموت عن عبيد
وإماء ، وضياع وثوراء ، وأثاث وكساء ، بعد ما ظلم أبالزهراء ،
وآثر على الخليفة الخلفاء ، وأراق ماشاء من دماء ، ثم ألقى
المعذرة والدنيا مدبرة ، وطلب المغفرة حال الغرغرة .

قلت : ومن تعنى يا مولاي ؟

قال : ابن العاص .

قلت : ذاك الذى أبلى بالأمس فى الجهاد، وجلس للحكم
بين الناس مجلس الزهاد ؟

قال : كانت نفسه إلى الدنيا مغلولة إلى حين ، ثم فككت
بموت أمير المؤمنين .

وتشاءب النسر عند ذلك ، فخشيت أن تكون هذه النومة
الكبرى ، وأن لا أراه مرة أخرى : فسألته عن الملتقى ،
فقال : بمصر بين الجزيرة والجسر . فسررت بالموعد ،
وبشرت نفسى بأصال مستعادة ، أفضيها مع النسر فى
استقراء واستفادة .

المحادثة الثالثة عشرة

قال الهدد :

لما كان الغد ، خرجت إلى الموعد ألقى النسر في مصر ،
 بين الجزيرة والجسر ؛ وأنا مسرور ببقائه في وطني ، والاجتماع
 به بين قومي ؛ لعله ينفعني بالتنبيه والإرشاد ، ويفيدني
 الملاحظة والانتقاد ، فيما خفي عليّ من خلائق الرجال ،
 وما غاب عني من حقائق الأحوال ؛ لأن الغريب حريص
 على الصغيرة والكبيرة ، يرى من كل بلد يحله ، ما لا يراه أهله ،
 كالتمساح لا يبصر في الماء وهو موطنه الذي يعيش فيه ، فإذا
 خرج منه كان أحدّ الحيوان لحاظا ؛ فكيف به مثل الأستاذ
 واسع العلم والدراية ، متقادم العهد على صحة الزمان وأهله ؛
 فبلغت النهر وكان الأصيل على مائه ذهابا ، والريح على مائه

لعبا ، والمنظر على فضائه عجبا ؛ وكان الناس يخرجون إليه
موكبا موكبا ، تجرى بهم المركبات من كل طراز وشكل ،
فن (بسكليت) كبساط الريح لا تراها ، وتنظر من أجزائها ؛
تمرق كالسهم مروقا ، وتخفق كالريح خفوقا ، وتنساب فوق
طريق الناس ، فتصوت كالأفاعي ذات الأجراس ؛ ومن
(أتومويل) كجني عفيف ، ذى هبوب وعزيف ، صوتها أنكر
الأصوات ، وفيها جمعت المزعجات ، وراكبها لا فى الأحياء
ولا الأموات ؛ ومن (ترامواى) تنقل الأقوام من شاطئ
النهر إلى الأهرام ، وهى تمضى بصاحبها ثم تمضى عليه ، بخلاف
الأيام فيما ذهب الشاعر إليه :

ما أسرع الأيام فى طيننا تمضى علينا ثم تمضى بنا
ومن مركبات تنقاد بأعنة الجياد ، منها ما لا تسمع لها
حسًا ولا جرسا ، كأنما يهمس فى أذن الأرض همسا ؛

وبعضها كالدار طبقات ، تتبوأ مقاعدها فيه الجماعات ؛ وبعضها قليل الحجم يحرقه فرد ويركب فيه فرد ؛ وبالجملة وجدت منازه الجزيرة والجزيرة ، حافلة بصنوف المحدثات ، جامعة لأنواع المخترعات ، كأنها غاب « بولونيا » الشهير في باريس ، لولا أن القوم عليها كشكول ملل ونحل وأجناس وأزياء وألوان ، وقد ذهبت أيام الحمير ، وتصرفت دولة البغال ، ففسى الشيخ في مركبته ذكر بغلته ، وكانت بجلى زيلته ، في ذهابه وجيئته ؛ وهجر السيد الحمار ، إلى (الدوكار) ، وبرز الكبراء للناس في (الآتومويل) ، وكانوا ينكمشون وقاراً في (الكويل) ، وألهت (البسكليت) الخصى ، عن جواده العربى ، وسرجه الفضى ، وكانا زيلته بالغداة والعشى ، وركبت السيدات في مكشوف المركبات ، تجرى بهن بين أعين الجماعات ، وكن في مثل هذه الأحوال لا يملن حيث

يميل الرجال ؛ عادات بُدلت ، وأحوال تحولت ، وآية للغرب
في الشرق علمت ، وألقاب حضارة ومدنية ، لاشرقية
ولا غربية ...

قال : فلما صرت على الجزيرة ، تقصيت النظر أنشد
النسر عليها ، فرأيت من بعد درويشا قد خلا بنفسه في
ناحية ، وهو يستقبل النيل ويديم النظر إليه . فوجدت ريح
النسر لأول وهلة ، وتقدمت إليه فقلت : سعد النيل بشاعره
في الزمان الأول يا مولاي . قال : وسعدنا به يا بني ؛ إنه
سموأل الأنهار ، الوافي على الأدهار ، الجارى بالليل والنهار ؛
عبد قديما وأله ، وقدس وجه الدهر ونزه ، وآوى النبيين في
المهد صبيين ، فجرى التابوت فيه بموسى ، وبلغ الفطام لديه
عيسى ؛ ولا يعلم إلا مجريه كيف انفجر ، ثم جرى وانحدر ،
ثم كفلته الشمس والمطر ، وكم قرية عمر ، وأخرى دمر ،

وهيكلٍ نثر ، وديابةٍ قبر ؛ وكم أفتى من زمر ، بمن نهى وأمر ،
وتكهن وسحر ، وفتح وانتصر ؛ ألا ولأنه المنهل العذب ،
أقتل عليه القاهرون فوق البشر ، فانتهى إليه قميمز بغاراته ،
فالإسكندر بفتوحاته ، فقيصر بانتصاراته ، فابن الخطاب
بغزواته ، فسلیم بحملته ، فنايليون بتجريدته ؛ هذا يابني حظه
من التاريخ ، لا ينافسه فيه نهر ، ولا يزاحمه عليه بحر ؛ على أن
حظه من الطبيعة أوفر ، وقسطه من نعمائها أكبر ، شمس تزهو
وأفق أنضر ، وواد أخضر ؛ وجو لا يستعر ولا يخضر ،
ونسيم يخطر ، ومطر يندر ، ورزق بأيسر السعي يحضر ،
وسهل صعب على العدو ، ولجة تستعصى عليه على ما بها من
هَدَق ، لو وجد من يمنعه من الدنق ، وفوق هذا وذاك هو
القائم على هذا الناس بالأقوات ، إذا فاض أحياء وإذا غاض
أمات ؛ ولا يزال يأخذ من البر للبحر ، فتمتصع مصر بفضلها

من سهل وواد، وقرى وبلاد .

قال الهدد :

فشفتنى هذه الكلمة فى النيل ، وودت لولم يختصر النسر
من هذا البحث الجليل ، وإن يك أتى بالكثير فى القليل ؛
وكان قد التفت فرأى المراكب تموج ، على تلك المروج ؛
فسألنى : لعل هذه مصر القديمة ونحن على نقراطيس .

قلت : وما نقراطيس يا مولاي ؟

قال : ثغر كان لنا على البحر ، قامت «فوة» مكانه اليوم ،
وكانت الأجانب ، لا يؤذن لهم أن يسكنوا سواه ، ولا يسامحون
فى الخروج منه إلى غيره من نواحي القطر .

قلت : بل نحن فى عاصمة السبلاد يا مولاي ، وهؤلاء
مترفوها من أهلين وأجانب .

قال : وما هذه المطايا التى لا تجوع ولا تظمأ ، وكيف تسمونها ؟

قلت : هذه محدثات الغربيين ، تجلب إلى مصر فيتهافت
الأغنياء على اقتنائها ، ولم يتفق علماء اللغة على تسميتها حتى
الآن ، ولعلمهم لا يتفقون ، فإن القوم اخترعوا (الأتوموبيل)
من كل حجم وشكل ، واتخذوا منها دوارع في البر ، ونحن
لا نرضى عن سماها السيارة ، ولا عن دعاها بالجوالة .
قال النسر : اللسان يابني من حيث هو مضغة ، مرآة الصحة ؛
ومن حيث هو لغة ، مرآة الأمة ؛ ولا غرابة في أن تقعد بكم
اللغة وتخونكم في ميسور الأمر وعسيره ؛ فهي إنما تأخذ
بنصيب من هذا النقص العام ، وتتأثر بهذا العجز الشامل ،
لأنها للعلم مثل الظل للشمس ، يتضاءل بتضاؤه ، ويطول
بطوله ؛ والعلم في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة ، مثل
ما هو في الشروح والمثون ، وفيما يسمونه الفنون الجميلة ؛
فكلما ظهرت آثاره على هذه الأشياء في مجموعها ، اتسعت

اللغة من مادة ، وازدادت من حياة ، وتهذبت على الزمن ،
وحسبت على ناموس الارتقاء ، يقتادها بأزمته ، ويجرى بها
في أعنته . هذه يا بني هي الحياة الحقيقية للغات ، وما سواها
فتوهم ، ووجود أشبه بوجود الأجسام المخنطة : يُظن بها
حفظ وهي وإن طال المدى ستيبده .

قلت : إنك لتتعى يا مولاي !

قال : ومن أنمي ؟

قلت : اللغة العربية ؛ فقد حيل في التعليم بينها وبين العلم
الذي تزعم أنه للغات كالروح للجسم .

قال : وماذا يحول بينهما ؟

قلت : الحكومة في مدارسها ، والكتاب في منشآتهم ،

والعلماء في مؤلفاتهم ، والجرائد فيما تنشر كل يوم ؛ فأما
الحكومة فقد استقر عند القابضين على أزمة التعليم من

رجاها في السنين الأخيرة ، أن اللغة العربية لحقت باللغات
الغابرة ، وأنها في واد وعلوم هذا العصر في واد ، ولا يزالون
على هذا الرأي وفي هذا السعي ، حتى يَبَسَّ ما بين اللغة العربية
وبين العلم ، ولا يكون بعيد حتى تعدم من يعلم قواعد الحساب
فيها أو يعلمها الناس بها ؛ وأما الكتاب فقل من جمع منهم بين
العلم والبيان ، وهم المشهورين منهم بالإجادة في الوصف
والتصوير ، انتقاء اللفظ والاحتياط على المعنى ، واتباع الشعراء
في الهيام ، ومزاحمتهم على الخيال ؛ حتى ضاع محل الكتابة
العلمية بين منشآت الكتاب ، وخلا أكثرها من حقيقة التاريخ
وروح الفلسفة ، ونبتت فيه العلوم الطبيعية ؛ ومُهجِر الطب
والفلك وغير ذلك مما له في اللغة العربية أساس طال عليها
الآبد وغيرها التَّرك والإغفال^(١) ؛ وأما العلماء في مصر فأبعد
(١) قلت : كان ذلك حال الكتابة في أول هذا القرن ، أما
اليوم فالامر غير ما يصف المؤلف .

الناس عن معرفة في اللغة ، أو تمكن من أدبها ، يتلوى دماغ
أحدهم من العلم ، ويتغرب في سبيله ، وينفق الأيام في تحصيله ؛
وإذا ألف بعد ذلك لم يؤلف فيما يعرض على أبناء العربية
بين صحة التقرير وسلامة التحرير ؛ ولا أستحي يا مولاي أن
أختص بالذكر في هذا المقام أولئك الألوف ممن خرج أو
يخرج من الأزهر ، وهم علماء الدين المتفقهون فيه ، أخوج
ما كان الخواص والعوام إلى كتاب منهم مجيدين ، يلمنون
للأمة مواضع الحكمة في أحكام الدين ، ليقروها في أذهان
الخاصة ، ويقربوها من عقول العامة ؛ ومع ذلك لم يقم من
بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يرجون لمثل هذا النفع ، ومن
البلية أنهم بهذا الفضل محسودون ، ومن أجله ممقوتون .
رُبَّ مدرسٍ يا مولاي تقلب على أعمدة الأزهر ، وأقى
الطلبة طبقة بعد طبقة ، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده في

بعض الشئون خا نه القلم ، وكتب ما لا يفهم ، وكان في رسالته أنكر خطأ وأكثر خطأ من شاب أرسل إلى الغرب في أول الصبا ، كلما دعاه داع ليكتب إلى أبيه بالعربية ؛ وأما الجرائد يامولاي فمشغولة في الغالب بسفاسف السياسة عن كل شغل ، منصرفة عن وجوه الخدمة الحقيقية ، لا يهتمها إحياء اللغة ، ولا يعينها نشر العلم باللغة ؛ وشتان ما بينها في ذلك وبين الصحف الغربية ، التي هي من التمكن وكثرة الانتشار بحيث تلحظ أحوال الزمن كل يوم ، وتنظر في سياسة العلم بأسره ، ومع ذلك فالأهم عندها ، المقدم من واجبات الصحافة ، إنما هو ترقية الآداب ، ونشر العلم بين الجماعة ، والبحث فيما يجد منه ويكتشف فيه بحثا مدققا ربما كانت فيه من قرائها بمنزل الأساتذة من تلاميذهم .

قال : الآن علمت أن الفاس في الأساس . ثم التفت

والتفت ، فبداله وراء النهر قصر عليه بهاء ورونق ، وإن لم يكن بالسدير ولا الخورنق ، فأوماً إليه وسألني : لمن الدار ؟ قلت : لزعيم الاحتلال ، والرقيب على جماعة الرجال ، بعده الإنكليز في جملة عظمائهم ، ويختلفون إلا فيه ، ويرمقون بناء لهم في الاستعمار يبنيه ؛ تخير هذه البقعة ثم بنى فوقها تلك الدار ، فبنى السكثيرون على الآثار ، حتى جاورها من ليس لها بحار ، وكثر عليها في الزيارة من كان يجادل فيها الزوار ، وأصبحت هذه الناحية وفيها اعتبار ؛ ههنا الفلاح المصري وههنا المستشار !

فلم يكن من النسر إلا أن تبسم ثم قال : لا احتلال .. ! فدهشت من هذا الجواب وقلت : أما زح يا مولاي أم أنت لم تفهم مقالى ؟ قال : بل أنت الذى لم تفهم ، فلا تجادلنى حتى تعلم .

وفي هذه الأثناء مرت مركبة صغيرة ، يجرها جواد واحد ، يمسك عنانه شاب من الإنكليز ، لا أبته على ركابه ، ولا زخرف على ثيابه ، فيه حشمة ووقار ، وعليه للتواضع آثار ، حمل على إحدى عينيه زجاجة فأبرقت تحتها ، وترك الأخرى تتمثل بقول المتنبي :

* هو الجد حتى تفضل العين أختها *
فجعلت أنظر إليه ، فسألني النسر : من هذا الذي شغلتك رؤيته ؟

قلت : هذا مستشار المالية يا مولاي ، له المحل الثاني في الاحتلال ، وهو على خزائن مصر يدبر المال ، ويشرف على الجليل والحقير من الأعمال .

فتبسم الفسر ثم قال : لا احتلال ... !
فقضيت العجب من هذا الإصرار على الإنكار ،

وقلت : أتريد يامولاي أن آتيك بدليل على النهار ؟

قال : لا ، بل أريد أن تصبر معي .

وهناك اقتربت منا مركبة فيها ضابطان ، كأنهما ساريتان ،

عليهما حلتان حمراوان ، وهما يشيران بوجهيهما نحو السماء

تعاظها وعزة : فسألني النسر : بمن الجند ؟

قلت : وما انتفاعك يامولاي بسؤالي إذا كان الجواب

لا يقنعك ؟

قال : لعلهما من جيش غريب !

قلت : وهو جيش الاحتلال ، له في كل ناحية من

القاهرة معسكر ، وكل واحد من جنوده علم انكثرا الذي

لايمس ، وسيفها الذي لا يُجسّ ، وقد بولغ لهم في الرعاية

والحيطة ، فجعلوا فوق القوانين كلها في البلاد ، وانشئت من

أجلهم محكمة مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها . . .

فتبسم النسر كعادته ، ثم قال : لا احتلال ...
فكتمت غيظي ، وغلبت النفس على غضبها ، وقلت :
لا سبيل يا مولاي إلى الجحود ، بعد ما رأيت الجنود .
قال : مثل البلاد تراها أنت بعين ، وأنظرها أنا بعين ،
كالمرضى بين العائد والطبيب : ينظر الأول إلى جسمه
الناحل ، وقوته الواهنة ، وعينه الغائرة ، وشفته الذابلة ،
وعرقه المتصبب ، ويسمع زفراته المتصاعدة ، وأناته المتتابعة ؛
فيرق له ويرثى ويتوجع ، ثم يخرج من عنده وليس المريض
في اعتقاده إلا ما رأى بعينه وسمع بأذنه ، فإذا سأله سائل :
ماذا بصاحبك ؟ قال : بجسمه نحول ، وبشفته ذبول ...
ووصف سائر مشاهد من الأغراض ؛ ويكون الطبيب في
هذه الأثناء قد نظر لسان المريض ، ثم جس نبضه ، ثم قعد
يقرع ويتسمع ، ثم انصرف يقول في نفسه : داؤه كذا ،

ودواؤه كذا ؛ وقد كنا يابني أمة تسعد يوما وتشقى يوما ،
وكانت لنا دولة تعلو حيناً وتسفل حيناً ؛ حكم الأجانب فيها
مرارا ، فلا أذكر أنهم حكمونا يوما ونحن أمة كملت فيها
أدوات الحياة ، أو سلبونا دولتنا وهي في مَنعة وإمكان ،
قائمة على حقيقة الملك والسلطان ؛ فِعِلل الأمم إذاً باطنية ،
لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج في مواطنها ؛ ومقام هذا العالم
منذ قام إلا على هذه القاعدة وكل ضعيف الركن مضطهد ،
وهي تسرى على الجماد والنبات ، كما تسرى على الإنسان
والحيوان ؛ فالجبل يجذب إليه الذرّ ولا يجذب هذا إليه
الجبل ، والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه ، والذئب
يفترس الحمل وإن يكون له فريسة ؛ وكذلك الناس ، جهلاؤهم
لعقلائهم تبع ، وضعفائهم لأقويائهم خدم ؛ سنة الدهر في
بنيه ، وشيعة قديمة فيه ، فالأولى بالذين يتصدون لفك الأمم

المستترقة ، وتحرير الشعوب المملوكة ، أن يعلموها أن قيود الحديد لا تعالج إلا بمبارد الحديد ، فالعقل لا يقاوم إلا بالعقل ، والقوة لا تستدفع إلا بالقوة ، والناس مُسذ وجدوا رأس وذنب ، والدنيا مذ كانت لمن غلب .

قلت : أفدت يا مولاي وأرشدت ، ولكن هذا كله لا ينفي وجود احتمال أجنبي في البلاد ، أَرَيْتُكَ آثاره فأنكرتها ولم تذكر السبب في الإنكار .

قال الهدهد :

فجعل الأستاذ يتشاءب ويدخل في السنة المعهودة ، ثم قال كلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين . وسألني بعد ذلك : أين الملتقى غداً ؟ قلت : على الأزبكية يا مولاي . قال : الآن لك وكر ولى وكر ، فلن يجمع الليل الهدهد والفسر . ثم احتجب عيانه ، وذهب شيطانه ، فانشيت فيمن انشئ من

الجزيرة ، وأنا أذكر ما كان ، وأخشى أن يكون في البلاد
احتلال ثان ، من روس أو ألمان ، أو صين أو يابان ؛ وهي
بحمد الله منذ كانت لا تضيق بنازل ، ولا تبكى على راحل ؛
ولكن قلت في نفسي : ليس بعد خفي الإشارة ، إلا جلي
العبارة ؛ وما تجاهل النسر إلا وفي نفسه أمر ، فقد عودني
منذ انعقدت بين شيطانينا الألفة ، أن يجد فأحسبه يهزل ،
ويهزل فأخاله يجد ؛ وأن يتوضح آونة ويتكتم آونة ،
ويقتضب تارة ويترسل تارة ، ويعلم حيناً ويتجاهل حيناً ؛
وأنا إنما أتأدب بأدبه ، وأذهب بالمحادثة في مذهبه ، وأصبر
على مرافقته وموافقته ، لأنه عالم يصحب على جلالة ، وحكيم
يجب في جميع حالاته ؛ وإذا نقلت إلى الناس أحاديثه فإنما
أنقلها كما هي ، ليأخذوا الدر ويذروا المُخْشَلَب ، ويدخلوا

ظلمات المعدن على الذهب ، على أنى أنبه من تهمهم هذه
المحادثات من القراء إلى أيام النسر في مصر ، لأنها إنما
تتناول الحالة الحاضرة ، ولا مستقبل لقوم لا يهمهم حاضرهم .

المحادثة الرابعة عشرة

قال الهدد :

لما كان الغد قصدت الأربكية لملاقاة النسر ، وإذا هي
كما عهدت بهجة هذا البلد ، لها المحل الأول فيه ، ولا تناظر
بناحية من نواحيه ، ابتسمت أرجاؤها بالمنظر الضاحي ،
وانتضدت عليها الدور العالية ، تحتها بيوت التجارة من
الطراز الأول ، تتخللها الأندية العمومية توج بالخلق الكثير ؛
وكانت قد أخذت كعادتها ليل أهدته ، وبرزت لأهل ودها
مرموقه بعين الرضى ، كريمة الشناء فى الخواطر ؛ فبعد أن
كانت دار الماجن والخليع ، وقرارة المدمن الصريع ، ومسلك
التهم فى اعتقاد الجميع ؛ وكانت مراح الفاجر ومغده ، ومصباح
المقامر وممسه ، وسامر المنسك ومن راعاه ؛ وبعد أن كان

الخروج إليها خروجا من الحشمة والوقار ، حتى مات أناس
من أهل الكمال ما عرفوها ، وبقيت منهم بقية لم ينظروها ،
أمست مَسَحَب ذيل الوزير ، ومُسْتَقَر أتوموبيل الأمير ،
ومجلس القاضى والمدير ، ومُسَامِرَ الكتاب والشعراء ،
ومنتدى العلماء والفقهاء ؛ وأصبحت مقعد المتقاعدين ،
ومستودع المستودعين ، ومدرسة الناشئين ، ورواق المجاورين ،
واديوان الموظفين ؛ تجمع الكبير والصغير ، وتخلط الرفيع
والوضيع ، وتحل محل (المنذرة) ، وتقوم مقام (السلامك) ،
وتغنى عن (الديوان) ، وتغص الأندية العمومية فيها بالجموع
من كل الطبقات ، وكافة الأجناس ؛ فترى عليها كبار الموظفين ،
عند (الذوات) المتقاعدين ، يليهم آلاف الجرائد يتهبونها
كأل اليتيم ، ويقرأونها عارية بالمليم ، فالزاجرون الشاة
الآكلون الفيل من عشاق الشطرنج ، فأصحاب النارجيلة

تفنيهم على الزمن كما يفنونها نفساً في نفس ؛ وتمر هناك على
أركان الغيبة والاعتراض ، من أهل الفراغ والبطالة ، وبجماعة
المقاولين من كل ذى لقب ، أو عاطل يذم الرتب ، وتلوى
على عصبة المحررين والمكاتبين في الجرائد اليومية ، أدرك
أصحابها النشب ، وأدركت أصحابنا حرفة الأدب ؛ وتعثرت فيها
كذلك على أعضاء الجمعية العمومية ومجلس الشورى ، آتين
من أقاصى البلاد لزيارة المستشارين ، وبعمد الأقاليم وأعيانها
كثروا على الأزبكية في هذه السنين الأخيرة زيارة وانتقابا ،
وجيئة وذهابا ، وكانوا إذا ظفر أهل السكسب فيها بواحدٍ
منهم أحلوه بين السمع والبصر ، وأجلّوه كأنه المهدي المنتظر ؛
وبالجملة يتعاقب على هذه الناحية ما بين حاشيتي النهار وطرفي
الليل عدا هؤلاء خلق كثير من حساة الراح ، وعباد الميسر ،
والأغرار من أهل الثروة الموروثة ، والناصبين لهم الجبائل

من أهل عِشرتهم . ومما يبكى منه ويضحك ، ولا يرى له
مثيل في مدينة من مدائن الأرض ، أن هذا العالم المنصب
في الأزبكية بالليل والنهار ، البازل فيها قليل المال وكثيره
كل يوم ، إنما يُلقى أساس الثروة ، ويرفع عماد البيوت لهذه
الامة الصغيرة الكبيرة المجتهدة المقتعدة ، أمة اليونان في
مصر ، لا في تجارة تحتاج إلى عظيم مهارة ، ولا في صناعة
تستلزم كبير براعة ، لكن في تجارة للهو والطرب ...

قال : وكان الذسر قد سبقني إليها ، فاعترضني في هيئة
وزيٍّ هو فيها أشبه بسائح أمريكي ، أو إنكليزي : قامه
طويلة ، لكنها ضئيلة ، وعارضان كشيغان ، لكن لا يلتقيان ،
وثياب لا يشتكى منها طول ولا قصر ، ولا ضيق ولا سعة ،
وهو يتشمخ بأنفه ، ويختال في مشيته : فضحكت حال رؤيته ،
وقلت بعد تحيته : قد كان لك غنى عن هذا الزى يا مولاي .

قال : ولم ذا ؟

قلت : لأن في طباعى النفار من صحبة أهله ، لاعتقار
ولا كراهية ، ولكن أربأ بنفسى أن أحتقر ، وأن أصحب
من لا يعدنى من البشر .

قال : ومتى احترم القوى الضعيف ؟ إنك يا بنى تحاول
من النفس غير شيمتها ، وتكلفها ضد طباعها ؛ وأنا ما اتخذت
هذا شعار إلا لعلنى أن فيه السلامة ، ومعه الكرامة ، فى
بلد ليس لى بدار إقامة . ثم التفت حوله وسألنى : بأى
مكان نحن ؟

قلت : على الأزبكية يا مولائى ، وهى قسم من القاهرة
ليس كسائر الأقسام ؛ كان وجه القرن الماضى مجرّ عوالى
الحوادث ، ومجرى سوابقها ؛ أقام به نابليون ومن معه ،
ولا يزال منزله عليه قائم الجدار ، معدودا فى جملة الآثار ؛

وفيه ألبس محمد على ثياب الولاية ، واتخذ عليه بعد ذلك
مسكنا يتردد إليه في تراوجه بين شبرا إيوانه ، والقلعة
ديوانه ؛ وما زال الأجانب يكثر على الأذربكية في السكنى ،
وهى تأخذ من سعودهم ، وتشاطرهم دنياهم المقبلة ، حتى
أكرمها فيهم الخديو إسماعيل فى زمن اهتمامه بهذه العاصمة
واعتنائه بأمر إصلاحها وتحسينها ؛ ففتح فيها الشوارع ،
وأنشأ فيها الميادين ، وآثرها بالأوبرا الخديوية ، دار التمثيل
الكبرى فى البلاد ؛ ثم ما زالت حتى أصبحت كما تراها تضارع
كثيرا من مشهورات النواحي فى الغرب ، حركة وتجارة ،
ورونقا ونضارة ، وعمارة ويسارة .

قال : وما هذا السوق القائم ، والدولاب الدائر ؟
ولن هذه التجارة الواسعة ، وتلك الدور الرفيعة ؟
ومن هؤلاء الشائحون بالأنوف فوق سلم النزل ، كأنهم

الفراغة في بهو الإمارة وعند رفرف الملك ؟

قلت : أبديت لك يامولاي أن هذه الناحية من القاهرة
تكد تكون للأجانب بأرضها وسماؤها ، فهذا السوق القائم
سوقهم ، وهذا الدولار إنما يدور بهم ، وهذه التجارة
الرابحة لهم ، وتلك الدور الرفيعة مساكنهم وعقارهم ؛ وهؤلاء
المدلون المختالون هم الشياح من الأوربيين ، يأتون مصر رحلة
الشتاء في كل عام ، فيقضون بها ماشاءوا من أيام ، مثل الملوك
في مشاتهم من ممالكهم وبلادهم ، بين إجلال الخاصة ، ومهابة
العامية . استأثر الأجانب بفوائد التجارة ، واختصوا بمنافعها ،
وقبضوا على أزمتها ، حتى أصبحت هذه الحوانيت الكبيرة
وتلك المخازن المشحونة ولا منصرف عنها لمصرى يحيا حياة
سهلة ، من أقصى الريف إلى أقصى الصعيد ؛ فما من بيت في
الآرياف أهله على شيء من الثروة إلا ومن الأربكية زيتهم

ودقيقهم ، وكأسهم ورقيقهم ، وطستهم وإبريقهم ؛ وإذا
بنى أحدهم بالغ في البنيان ، ومثَّل في القرية الحقيبة الإيوان ،
لكي يقال أتى بما لم يستطعه فلان ؛ ثم لا تسَل عن الأثاث
والرياش ، وما يُجلب منه من القاهرة لا ثقا لشاهقة القصور ،
ضافيا على وسيع الدور ، صالحا لجلوس المدير والمسأمر ؛
حتى ليجد الإنسان في كثير من مدائن الأقاليم وقراها ، من
هذه المساكن من الطراز الأول ، ما لا يجد له مثيلا في ضياع
أصحاب الملايين من الفرنسيين ، بالرغم مما عهدت القوم
عليه في تلك البلاد ، خصوصا كبار الزراع منهم ، من الميل
إلى المعيشة السهلة في المكان الطيب ، ولسكنهم لا يسرفون في
البناء إذا بنوا ، ويختصرون من الأثاث والرياش إذا اقتنوا ،
ويعتمدون في تشييد الدور وتزيينها على سلامة الذوق وحسن
الاختيار ، بحيث ترى المَعْنَى الصغير فتأخذه عينك على قلة

حجمه ، كأنه بيت من الشعر أو بيت من الشعر ، وليس ذلك
إلا من حب الاقتصاد الذى لا تقوم حياة الزراع إلا عليه ؛
وقد تدرج الأجانب يامولاى من الاستئثار بتجارة القطن ،
ما جل منها وما قل ، والانفراد بالصناعة فيه ، ما علا منها
وما سفل ، إلى مزاحمة الوطنيين على تجارات وحرف لم يكن
يخطر على بال أنها تخرج من أيديهم يوما ؛ ولا أستحي أن
أضرب لك مثلا هؤلاء الأطفال من اليونان والارمن ،
منتشرين فى الشوارع والأندية العمومية ، يسابقون فقراء
الغلمان من المصريين والبرابرة إلى النعال يمسحونها ، والأحذية
ينظفونها ؛ ثم أرتقى عن هذا المثل الأدنى إلى آخر أعلى ،
فأبدى لك أنه لا يقام فى مصر عظيم احتفال ، ولا احتيا فيها
بالأفراح ليال ، إلا رأيت المحل الأول للأجانب ، ووجدت
الربح من وراء ذلك لهم ، فالآنية من «جيس» ، والطعام من

«فلوران»، والشراب من «ووكر»، والحلوى من «ماتيو»،
والغلمان من «الكوتيننتال»، والنور من معامل الكهرباء،
والأصدر في المهرجان لمن حضر من القوم ولو بغير دعوة،
والقدم السابقة إلى المائدة قدمهم، والغناء مناوبة ومطارحة،
تخت لهم وتخت لنا، ومغنية منهم ومغن منا، يزهقون صنعة
الطاهي، ويبيرون تجارة الفراش، ويرخصون أسعار المغنى؛
وقد عاشت هذه الحرف الأهلية زمنا طويلا في مأمن من
منافسة المنافسين، ومزاحمة المزارحين، إلى أن قتلها سراق مصر
في هذه الأيام، وأصبحنا نخشى أن يتكفل لنا القوم بالمآتم
والأتراح، كما دخلوا علينا البيوت في الأعراس والأفراح؛
والقوم يامولاي فوق هذه البقعة وغيرها من نواحي القطر،
في شعب من حمى كليب عزاً ومنعة، تسهر المحاكم المختلطة
على حفظ حقوقهم، وتلاحظ عيون الامتيازات كرامتهم،

ويشفق القناصل عليهم في المهمات ؛ فكأنهم وراء هذه المعازل
والحصون أسود الغاب في الغاب ، لم يكفها تلك القوة وذلك
الإقدام ، فاستعصمت بالآجام ؛ وفوق هذا وذاك تراهم قد
القي عليهم للخواص محبة ، وملئ العوام منهم مهابة ، وصح
في الأذهان أن العقل لا يجوزهم ، والذكاء لا يحل دونهم ،
والهمة لا تتعدهم ؛ واستقر عند الذين يرجون للنهوض بهذه
الأمة من عثرتها ، ويطلب منهم أن ينفخوا فيها من كل روح
جديد ، من أهل الحل والعقد وناس الأحلام والآفلام ،
أن أوان العمل قد فات فلا يستدرك ، وبرهة الأمل قد
ولت فلا تعود ، وأنه لم يبق للمصريين إلا أن يودعوا أيام
الحياة وداعا . ومن عجيب أمر هذا الفريق العالی في الأمة
يامولای ، أنهم متحزبون متفرقون ، يعتقدون ذلك في
أنفسهم ، ويقولونه باللسان ، ثم يتقدمون لقيادة الأفكار

متباغضين متحاسدين متخاذلين ، كلٌ له أمل يسعى ليدركه ،
من وراء سكرة الخاصة ، وغفلة العامة ، في هذا البلد الأسيف ؛
أولئك هم القواد فيما زعموا ، لكن لا تراهم إلا في ظل
القصور الشاهقة ، ولدَى الأبواب العالية ؛ ولا تلقى بهم
إلا في مجالس اللغو والغرور والتفاق والرياء ، لا يجولون
في الصفوف جولة ، ولا يعيرون الجنود نظرة ؛ وإذا مرّ
أحدهم على جيشه الموهوم ، وفيلقه المزعوم ، كان في خيالاته
وكبريائه كالمملك الصغير المتوج ، ورث لقب القائد العام فيما
ورث من القاب المملكة ، فتكلف طلعة على جيوش
لا تعرف له فضلا ، ولا تذكر له بلاء ، وإن هتفت بتحيته
واصطفت بين المهابة فيه والإعظام ...

قال الهدهد :

كنت أتكلم والنسر مطرق يصغى لما أقول ؛ فلما انتهيت

رفع رأسه ثم قال : هذا يا بني هو الاحتمال ...
فقهمت عندئذ معنى إشارته ، في سالف عبارته ؛ وقلت :
لكم معشر السور كيد لا يبور ، ونظر بعيد في الأمور .
قال : دع عنك يا بني ما تسميه المحاكم المختلطة ، وما تدعوه
الامتيازات ؛ ودع القناصل وما تزعم لهم من حول وطول ،
واسحب ذلك على أولئك القواد من أهل العبث وطلبة المظهر
الكذب والشهرة الباطلة ؛ وهب أن الملك إدوارد وقيصر
والملوك الآخرين ملكوا عليكم البحر بالأساطيل ، ثم ملكوا
عليكم البر بالجيش زاحفة ، أكانوا قادرين على إذلالكم إن كان
لكم من أنفسكم عزة ، أو تفريق كلمتكم إن كان لها منكم جامع ،
أو تضییع حقكم إن كان له منكم طالب ؛ أم كانوا ضارين
على أيديكم أن لا تتداولوا أشياءكم فيما بينكم ، تشطون الصانع
منكم بالإقبال ، وتشجعون التاجر بالتهافت على بضاعته .

إن علمتم على أهل الصناعات منكم نقصا فتجملوا بنقصهم حتى
يزول فتجملوا بكاملهم ؛ فإنكم لاتزالون عراة حتى تلبسوا مما
حكمتم وخطمت ، ولاتزالون حفاة حتى تنعل أيديكم أرجلكم ،
ولاتزالون مشاة حتى تركبوا فيما صنعتهم ، ولاتزالون
توسدون الثرى حتى تسكنوا ما بنيتم ؛ وليس هذا الذى ترى
يا بنى ، من ثياب يزهو بها الجماعة ، ومواكب يختالون بها ،
وقصور ينعمون فيها ، وما هى من صناعة البلاد فى شيء ،
إلا مقابح ترى على الأمة فى مجموعها وإن توهمها بعض
الأفراد محاسن ؛ إذ جملة ما يقال عنها : أمة عارية ، كل
أشياءها عارية !

واعلم يا بنى أن الاحتلال الذى تستعظم أمره وتقول
وجوده حقيقة وأقول وجوده توهم ، لا يضيق ذرعا بمن
ذكرت من قادة الأفكار ، ولا يتأثر بسحبان لو رُدَّ إلى

الحياة فخطب ، ولا بعبد الحميد لو بُعث بعد ممات فكتب ؛
ولا يتعب بمعارضِ قوال ، ولا يشقى بمعاكسِ فُعال ، عشر
مِعار ما يقيمه ويقعده ، ويضايقه ويخرجه ، أخذُكم بالصناعة
والتجارة أخذ الأمم الناهضة الراقية ؛ لأن الإنكليز وغيرهم
من أمم الحضارة الحاضرة ، يذهبون من التملك والاستعمار
في غير المذهب القديم ، فلا يدخلون البلاد فاتحين يقبضون
نفوس أهلها ويسلبون من ذوى الأملاك أملاكهم ، لكن
كما يدخل التجار الأسواق ، مهمهم الاستكثار من الثروة ،
والاتساع في التجارة ، والتقدم على سائر الأمم في هذا
السبيل بحق الحكم وفضل الاستعمار ؛ فكل بلاد يحكمها
الأجنبي في هذا الزمن إنما يحكمها في الحقيقة بذراع مرتفعة
من الصناعة ، ويدٍ قوية من التجارة ، بحيث يصح أن يقال
عن عصركم هذا : لو كان رجلا لكان تاجرا .

قلت : أفدت يا مولاي وإن لم تزدني علما بزمني وأشياءه ،
لكن من أين لك هذه النظرات وأنت غريب في هذا الزمن ،
أجيب عن أهله ، نكرة في هذه الثياب ؟

قال النسرو هو يبتسم : ما غرك بشيطانٍ بتأورٍ فأنكرت
عليه بُعد النظرة ، واستغربت منه صدق الخطرة ، ، وقد كنا
يابني نمشي في البلاد المحكومة ، ونخطر بين الأمم المقهورة ،
فلا نرى إلا معسكرات مشحونة ، ولا ننظر من مظاهر
الدولة الحاكمة ، ودلائل الحكومة القائمة ، غير الجنود
الفاخرة ، يحمل الناس كبرياءهم في كل مكان ، ويصبرون
لاعتدائهم في كل آونة ؛ أما اليوم فليست المعسكرات إلا هذه
الخوانيت ، وليس الجند إلا هؤلاء التجار ؛ فإن قالوا إن
الهند مثلاً يحكمها سبعون ألفاً من جنود الملك إدوارد ،
فقل إنما ناصيتها بيد سبعة من ملوك التجارة في لندره . ولقد

أتى لكم معشر المصريين أن تؤمنوا فيمن آمن بهذه الآلة ،
وتعتقدوا أن العز في هذا الزمن قبة لا تضرب على قوم حتى
يمدوا لها الطنبيين : الصناعة والتجارة ، ويرفعوا لها عمودا من
الهمة والإقدام .

قلت : كل ذلك قيل للأمة يا مولاي ، ودعيت إليه
بالسنة قائلة ، وأصوات مرتفعة : ولكنها لم ترفيه رأيا ،
ولم تدبر لها أمرا حتى الآن ؛ على أن ذلك لا يثنى مولاي
عن الاشتراك مع الناصحين في مقالة يقولها ربما نجحت
في رجل واحد ممن تصل إليهم ، فتكون قد غنمت أجرا ،
وبلغت عذرا .

قال : لا رأى لي يا بني حتى أرى ، ولا حكم لي حتى
أنظر وأخبر ، وستكون لي معك خطبة وداع حافلة
بالنصائح والعظات .

قال الهدهد :

ثم تشاب النسر كعادته ، وقال كلمته المعهودة : إذا جاء
الليل ذهبت الشياطين . فسألته : وأين الملتقى غدا يا مولاي ؟
فأشار إلى الكوكتيننتال وقال : في هذا النزل .

المحادثة الخامسة عشرة

قال الهدد :

لما كان اليوم التالى ، أتيت نزل الكونتيسة ، فجلست فوق ذلك البهو العظيم ، أرقب طلعة النسر من بين صفوف المارة ؛ وكان السباح قد خرجوا إليه من غرفهم ، فجلسوا كل جماعة فى ناحية ، يستمتعون بالشتاء تحت سماء القاهرة ، وينظرون الحديقة وهى تتحلى بذهب الأصيل ، وتتجلى بالمنظر الجميل ؛ وكان يخالطهم هناك نفر من شبان أبناء الكبراء فى العاصمة ، تدل عليهم طرايبشهم ، وما سواها من الأشياء فهم والقوم فيه سواء ؛ وما هو إلا أن اطمأننى إلى المجلس ، حتى تراءى النسر يصعد السلم مبدياً عزة شماء ، ومشيئاً بأنفه نحو السماء ، كأنه روفلت يستعرض فى البحر ،

أو غليوم يستعرض في البر ، أو هو المتنبئ في هذا البيت
من الشعر :

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعِظاً غَيْرَ نَفْسِهِ

وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِحَالِقِهِ حُكَمَا

فلما لمخني أقبل نحوى بهلل ، وأنا أضحك من هيئته ،
وأستعظم كيد شيطانه ، فقدمت له كرسيًا ، فجلس جلسة
استكبار واستخفاف ، كأن لم يقدم على أحد ؛ فازددت
ضحكا من سيرته ، وقلت : هلا تواضع الحكيم ، وتأدب
الرجل العليم !

قال : وهلا تلطف في الخطاب ، فما كنت أستوجب
هذا العتاب . أنظر إلى القوم ، هل جلسوا إلا كما يجلسون ،
أو فعلت غير ما يفعلون ؟

قلت : صدقت يا مولاي ، ولكن القوم في موقف

احتقار لما حولهم ، ومن احتقر استهتر ، فهم لا يعلمون
من أمر هذه الأمة إلا أنها أشبه شئ بهؤلاء الحمارة !

قال : إذن فما عمل هؤلاء الشبان ، وهم فيما أظن
من المصريين ؟

قلت : هؤلاء أبناء كبراء القطر يامولاي ، صار لهم عادة
في هذه الأيام ، أن يتنافسوا في معرفة السياح ، ويتهافتوا على
صحبتهم ، ويستبقوا مرضاتهم !

قال : فما بالهم لا يشرفون أقداركم عند أصحابهم ؟
قلت : وكيف وهم إنما يتعرفون إليهم بالتبرؤ منا ، ثم
لا يُروّونهم من أشيائنا إلا ما يغرم بهذه الأمة ويخرجهم من
وقارها ؛ فإذا كان النهار أنشأوا لهم النزهة ، حوالى الأهرام
يوما ، وعلى النيل يوما ، من مثل ما اعتادوا في بلادهم ، وألفوا
في ديارهم ، من مركب ومأكل ، وهو وقصف ؛ وإذا كان

الليل دلوهم على عورة العاصمة ، وخرجوا بهم إلى كل مكان ،
يصان عن ذكره اللسان ؛ ولو كانوا على شيء من الأدب
أو قليل من العقل ، لوجدوا في هذا البلد القديم ، العظيم
من محاسن الآداب ، وغرر المناقب ، وكرائم الأشياء ،
ونفائس المآثر ، وكثيراً من الحياة الشرقية تجلى بها في
أحسن صورها وأجمل معانيها ، مما تسر السباح رؤيته ، وتهمهم
معرفته ، وتنفي به التهمة عن أدب المصريين ، ويحمل هؤلاء
الأجانب على العدول عن البغض والحقارة ، إلى الحب
والكرامة . انظر يا مولاي إلى هذه القبعة بين تلك الطرايش ؛
هذا شاب من نوابغ الفرنسيين في الأدب ، قدم مصر في
هذا العام سائحاً ، وهو يرسل الصحف السيارة في بلاده ،
وينشئ لقومه الروايات التي لا تفرغ الملاعب من تمثيلها ،
عرفني به أحد هؤلاء الشبان عفواً في هذا النزول ، فجلست

معه برهة ، ثم تركته ولقيت صاحبي بعد ذلك فقلت له :
ألا تجمع هذا الشاب الفرنسي بأبيك الباشا في معاهد عِزِه
ويسارِه ، ومجالس جلاله ووقاره ؛ فإنه أحوج إلى الوقوف
على شيء من مظاهر الحياة الشرقية ، منه إلى إنكليزيتك
وفرنساويتك وأتومويلك ؛ فاستضحك ثم لم يزد في الجواب
على أن قال : وماذا في أبي مما يروق أو يسر ؛ أتريد أن
تضحك الإفرنج منا ؟ مع أن الباشا المشار إليه ممن امتد بهم
الزمن في خدمة هذا الملك ، ومعاشرة كبار الموظفين من
الأجانب ، ومخالطة السفراء سفيرا بعد سفير ؛ وبيته في مصر
رفيع العِداد ، يصلح ليقصده الملوك في جملة القصاد .
قال الهدهد :

فما كدت أستتم حتى نهض النسر مغضبا ، ثم قال : هذا

يا بني هو الاحتلال ، فأخرج بنا من هذا المكان ،

فللضر أهون منظرا عندى من هؤلاء الشبان .
فبرحنا النزل على هذه الصورة ، وجعلنا نتمشى حتى
مررنا بتجارة واسعة على الأزبكية ، لمصرى من ذوى اليسار ،
عظيم القدر بين التجار ، فدلت السر عليها ، وحدثته حديث
صاحبها ، فتهلل واهتز ، ورغب فى الدخول فدخلنا ؛ وكان
رب هذا البيت التجارى العظيم جالسا فى ناحية ، لا يلقى
بالا لمن دخل ، ولا يهمه من خرج ، اتكالا على من معه من
ذويه وغلمانه ؛ فحولت نظر السر إليه ، فغضب غضبة فرعونية
وقال : متى جلس التاجر لأهل الرغبة فى بضاعته جلوس
الملك والحاشية قيام ؟

قلت : لعل له على هؤلاء الشبان اتكالا يامولاي .
قال : بل هو يدعوهم بهذا الربوض إلى السكسل ،
ويعديهم منه الخول ؛ ألا ترى المحل على سعة أطرافه ،

وكثرة مشتملاته ، خلواً من الحركة العظيمة ، عطلاً من الحياة الكبيرة ؟

قلت : لا أزال أمهد عنراً للرجل يامولاي ؛ فقد كان محله صغيراً فكبره ، وكان ماله قليلاً فكثره ، وكان ذكره خاملاً فأظهره ؛ ثم أقصر دون التناهي ؛ وهكذا تعود المصريون من دهرهم : يكتفى أحدهم بسبب من الغنى عن سائر الأسباب ، وتبيئ السعادة له داراً فيقف دون الباب ؛ وليس ما ترى في صاحبنا من الانقباض والانكماش والتناقل عن إظهار تجارته ، وإدارة هذا المحل العظيم حق إدارته ، إلا دلائل الإقصار ، وعلامات الاستغناء ؛ وتلك خلة يشاركه فيها سائر الموفقين السعداء من المصريين في الزمن الحاضر .

قال : بنست الخلة ، ولا بد لي أن أتقدم إلى الرجل ببعض النصح والإرشاد في هذا ومثله من شؤون عمله .

قلت : وأين تعلمت التجارة يا مولاي حتى تعلمها رجاها ؟
قال : التاجر يابني تلميذ في محله ، كل الواردين أسأذته ،
تعلمه المرأة البلهاء إذا تقدمت إليه في شراء إبرة ، ويؤدبه
الطفل الصغير إذا تعلق به في طلب لعبة ؛ فكيف لا يرشده
الرجال ، وهم في شغل مع التجار بالليل والنهار ، يرون من
أحوالهم وسيرتهم في محالهم ما لا يرى التاجر من أخيه ،
ولو كان جاره الذي يليه .

قلت : إن كان لا بد يا مولاي ، فهذا الشاب المتوقد
ذكاء ، المتدقق حياة ، الممتلئ من حب التجارة ، أولى بغالى
نصحك ، وأحق بضمين إرشادك ؛ لأنه من جهة في أول
الشباب ، وإنما يستثمر غرس التعليم في هذا العمر النضير ،
ومن جهة أخرى هو مخلوق لزم خلق هذا الشيخ لما قبله .
قال : صدقت ، فتوجه بي إليه ، وأعد ما أقوله لك
بلسان الشياطين عليه .

قال الهدهد :

فقصدنا قصد الفتى ، وكان جالسا فنهض نشطا ينتظر
الإشارة ، فقال له النسر بلسانى وهو هش به بش : اعلم
يا بنى أن التاجر الحق يدخل الحانوت ليمشعر عمله ، فلا يزال
فيه على قدم حتى يخرج منه ليرتدى لباس الليل ؛ لأنه فى هذا
الموقف بين يدى الرازق ، وهو يحب المتأدين ، وينفخ من
روحه فى الناشطين ؛ فإن كان المشتغل بالتجارة صاحبها ،
وجده المعامل حاضرا ، ووجده العامل ساهرا ، ووجد نفسه
صابرا على العمل قادرا ؛ وإن كان من الأجراء فيها ، بلغ
عند رئيسه منزلة فى الحب والثقة ، وتحبب إلى الناس بأدبه ،
وتقرب إليهم بنشاطه ؛ فإذا وفق يوما لإ إنشاء محل وتأسيس
تجارة ، مال الناس إليه ، وأقبلوا عليه ، وكانت سيرته المعلومة
عندهم ، وأخلاقه المعروفة لديهم ، خير ما يعلن به أمره ،

مهما كثرت أساليب الإعلان في هذا الزمان .

قال الفتى : أعتذر إليك يا سيدى ، وأشكرك على هذه
النصيحة ؛ والآن ماذا تأمر ؟

قال النسر : أريد دواة ، ولا أكتمك أننى كثير الكتابة ،
فلا أصبر على دواة واحدة .

فجاءه الفتى بها غالية ، من صنعة عالية ؛ فقبلها ثم ردها
إليه وتبسم فقال : لو استوصفتنى يا بنى كيف أريدها ، وبأى
ثمن ، لكفيت نفسك تعب الرجوع بها من حيث جئت ؛
وإنه لأجلب لراحة المشتري أن يُكثر عليه التاجر فى الأسئلة
حال الطلب ، من أن يملأ الخانوت بين يديه بضاعة ، ويضع
عليه جانباً عظيماً من زمنه فى بحث وتنقيب ، وتأمل وتقليب ؛
على أننى عرّفتك بخفى الإشارة ماذا أريد ، إذ قلت لك إننى
كثير الكتابة لا أصبر على دواة واحدة ؛ ومن كان كذلك

لا يقتنى هذه الأداة من ذهب ولا فضة ، بل ربما استكثرها
لنفسه من الخشب والنحاس .

قال الفقى : أشكرك ياسيدى على هذه النصيحة بعد
النصيحة . ثم إنه عرض على الأستاذ دواة كبيرة الحجم قليلة
الثن ، فرغب عنها ، فجاءه بأخرى أقل حجما وثمنا ، فقبلها
ثم دفعها ، فأتاه بثالثة فردها كذلك ، ثم مازال حتى بدا
عليه الملل ، وظهر عليه الغضب ؛ وأحس الأستاذ ذلك منه ،
فقال مخاطبه : لعلك من الملائكة يابنى ، فقد صبرت لنصيحتين ،
وأراك على استعداد لقبول الثالثة بالرغم مما بدا عليك من
دلائل الضجر ؛ وقلّ من صبر من الناس لنصيحة واحدة .
فاعلم يابنى أن بيوت التجارة لا تعمرو ولا يرفع لها عماد ، حتى
تكون أوسع من صدر الحليم ، وأرحب من فناء الكريم ،
تخف بالثقل ، ويدارى فيها السفهاء ، ويعالج البخلاء ،

وَيُصْبِرُ لِلْأَغْيَاءِ ، وَيُتَهَافَتُ عَلَى الْغُلَظَاءِ ، وَيُحْمَلُ فِيهَا الْكِبَرِيَاءُ ؛
وَالتَّاجِرُ يَا بَنِي قَدْ يَسَاوِمُ سَاعَةً فِي الْخُرْزَةِ ثُمَّ لَا يَبِيعُ ، وَقَدْ
لَا يَسَاوِمُ لِحِظَةٍ فِي دَرَّةٍ يَبِيعُهَا ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ قَدْ
خَسِرَ فِي الْأَوَّلَى أَضْعَافَ مَا رَجَحَ فِي الثَّانِيَةِ ؛ إِذْ جُمِلَةُ مَا يَقَالُ
عَنْهُ : لَيْسَ فِي حَانُوتِهِ خُرْزَةٌ تَشْتَرِي أَثْمًا يَنَاقِشُ هُوَ نَفْسَهُ
فَيَقُولُ فِي خَاصَتِهَا : عَجَزْتُ عَنْ بَيْعِ خُرْزَةٍ . أَلَا الْجِدَالُ يَا بَنِي
وَأَطِيبِ الْمُنَاقَشَةَ وَأَشْهَى الْمَغَالِطَةَ ، مَا كَانَ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالشَّارِي ؛
لَأَنَّهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ خِدَاعٌ تَجَاهَ خِدَاعٍ ، يُصَدِّمُ الْحَرِصَ بَيْنَهُمَا
بِالْحَرِصِ ، وَيَجَارِبُ الطَّمْعَ بِالطَّمْعِ ، وَيَقَاتِلُ الْغَشَّ بِالْغَشِّ ؛
وَلَا يَنْفَعُ التَّاجِرُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ وَلَا يُظْهِرُهُ عَلَى قِرْنِهِ
إِلَّا الصَّبْرُ ؛ فَلَعَلَّكَ بَعْدَ هَذِهِ النَّصِيحَةِ مِنَ التَّجَارِ الصَّابِرِينَ .
قَالَ : سَأَصْبِرُ يَا مَوْلَايَ حَتَّى تَرَانِي أَرْضَى الْمَرِيضَ
وَالْأَفِينِ ، وَالشَّحِيحِ الضَّنِينِ .

قال : بورك فيك يا بنى ؛ والآن عندى نصائح أخر ربما
نفعتك فى عملك هذا : فهل لك فيها ؟

قال الفتى : هات يا مولاي فإنى مستمع إن شاء الله متبع .
قال : التجارة يا بنى آية عصركم هذا الكبرى ، أعلى الممالك
ما قام عليها ، وأوسع الدول ما اتسع منها ، وما من ملك
ولا أمير ولا حاكم ولا وزير عرف الغنى فى هذا الزمن
إلا عرفه من طريق التجارة ؛ فهى صيد يطلبه الجميع غير
أن الشباك مختلفات . أغنياء هذا العالم يتاجرون بمالهم فى
السر ، وأنتم معاشر العمال تتاجرون بعملكم فى الجهر ؛ أنت
تعمل لمستأجرك هذا ، وهو يعمل لأناس هم أوسع منه تجارة ،
وهؤلاء يعملون لبيوت التجارة من الطراز الأول فى العالم ،
وتلك تعمل لأصحاب الملايين من بيوت الملك والإمارة وأسر
المجد والشرف وجماعة الساسة والقواد وسائر عظماء الرجال ،

سواء اشتهر عنهم أنهم من أصحاب الأموال أو خفي أمرهم
على الناس ؛ إذا عملت ذلك يا بني عرفت نفسك قدرها ،
لذا يرسخ في اعتقادك أن الملك والتاجر ربما كان شريكين
في تجارة ولا يعلم أحدهما بالآخر ، هذا يؤسس الشركة بماله
وسلطانه في الخفاء ، وهذا يقيمها بعمله وأمانته في الجهر ؛
ومتى احترم الإنسان عمله تولد عن هذا الاحترام حب
العمل ، وهو سر النجاح ؛ فأحب يا بني التجارة تجد عنها
مع الحب راحة ، وتُلف صعبها معه سهلا ؛ واجعل الأمانة
فيها رأس مالك ، ولو كان لك شمس الجبال من رؤوس
الأموال ؛ لأن دولاب التجارة يدور بالمسال مرة ، ويدور
بالأمانة والذمة ألف مرة ؛ وكن يا بني في هذا المحل كأنه لك
في اعتقاد ، وكأنك تمر به مرارا في اعتقاد آخر ، وبعبارة
أصرح : كن كثير العمل ، كبير الأمل ، لا تقف في الغنى

عند نهاية ، ولا تتمهل في المجد عند غاية ؛ واعلم أن كل
ما يفيض عن قدر الإنسان وشخصه من سعة الثروة ورفعة
الذكر ، إنما يفيض على وطنه وقومه ؛ وإن طالبتني بمثال
حاضر فهذا دكارنجي ، الأمريكي ، جمع بالأمس سفن التجارة
في لجج الغرب وبحار الشرق تحت راية أمريكا التجارية ،
مع أن المجد والثراء من أن يستزاد هذا الرجل براء ؛ وإذا
ذكر التوفيق يابني أخطر السعادة على بالك ، أوحثوك
عن قيام الجد ويمن الأمر وإقبال الدنيا ، فقل : ذلك فضل
السماء تؤتيه من تشاء ؛ وكن كربان الباخرة : ملأها فخا
واستوثق من استقامة إربتها وسلامة آلاتها وكال أدواتها ،
ثم خرج بها إلى عالم الماء غير آخذ موثقاً على الرياح
والأنواء ، ولا في يده صك بالوصول من القضاء .
قال الهدهد :

وبينما الأستاذ يثر من حلي نصائحه ودرر وصاياه على
سمع الغلام ، وهو يصغى لما يقول ويفهمه فهم ذكي في طباعه
حب الاستفادة ، انسلخ رب التجارة من كرسيه ثم تقدم
نحونا وسأل الغلام : من هذا الذي شغلك ساعة زمان وماذا
يريد ؟ قال : يريد دواة ولا يكاد يجد طلبته . فاستحوذ على
التاجر الغضب وقال يعتف الفتى : أمن أجل دواة تؤخر
شغلك ساعة ، وتنقطع لهذين دون الجماعة ؟ فعبس الأستاذ
وتولى ، وهمس في أذني بأن قال : هذا يا بني هو الاحتلال !
ثم خرجنا فاندفعنا نمشي حتى مررنا بجدار كتب على
الأزبكية أيضا ، فاستوقف النسر حقارة حانوته ومنظره
الزرى ؛ فسألني : لمن الحانوت ؟ قلت : لرجل منا يامولاي .
قال : ما يصنع فيها ؟ قلت : تجليد الكتب وتغليف (الرسائل)
لكي تحفظ زمنا طويلا ، وتكون للكتاب زينة . قال :

هل لك في الدخول ؟ قلت : انظر ماذا تأمر يا مولاي .

قال : انظر إلى الشمس كيف مالت ، وإلى دولة النهار

كيف زالت . ثم تمطى كعادته وتشاءب ، وقال كلمته المألوفة

إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ؛ فإذا كان الغد فالقنى في أصله

على باب هذا الخانوت .

قال الهدهد :

ثم لم أر لذلك الشبح أثرا ، فضيت في سبيلي وأنا أذكر

التاجر والغلام ، وروحانية ذلك الكلام ، وأشتهى على العناية

أن تستخر لعوام هذه الأمة من خواصها مرشدين ، وتبعث

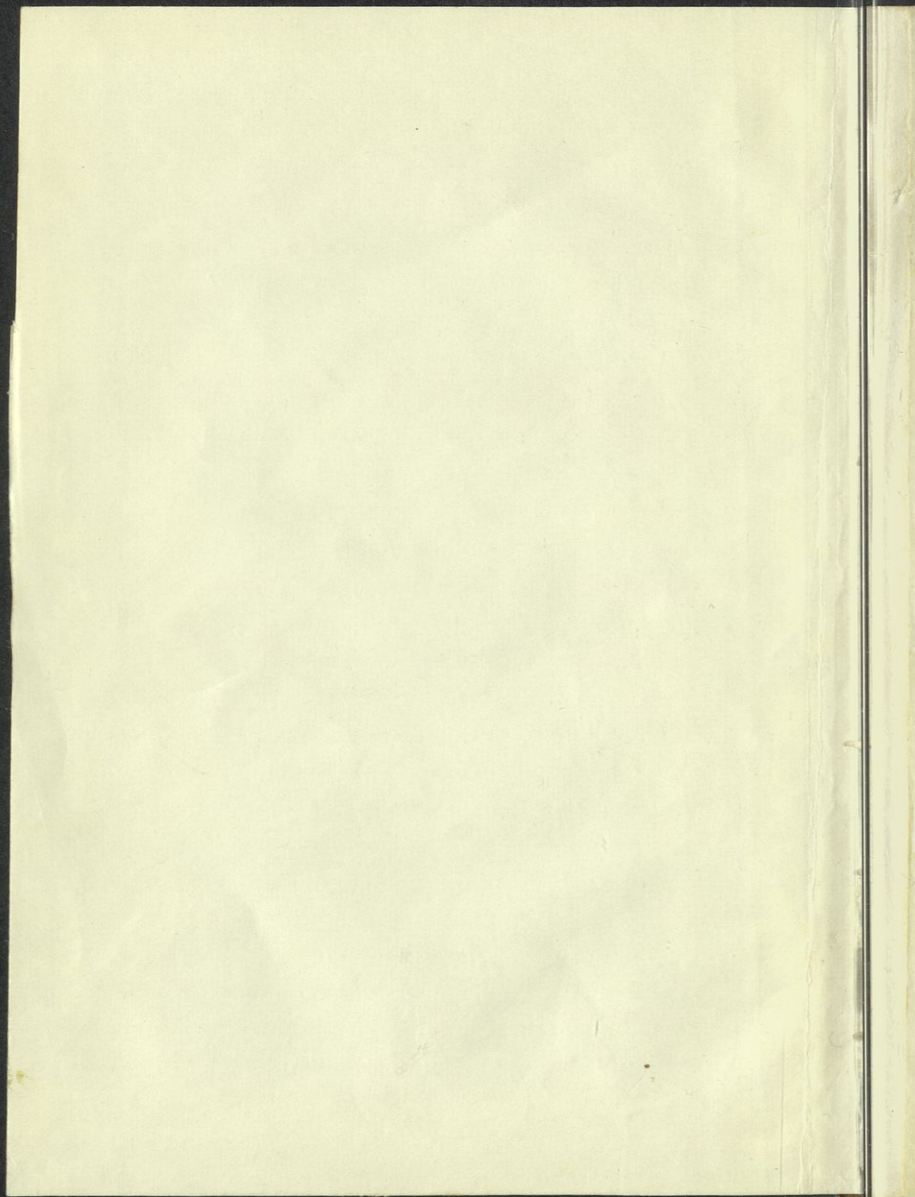
بجهلائها المصاييح من العلماء الهادين ، وأسأل الله أن يخرج

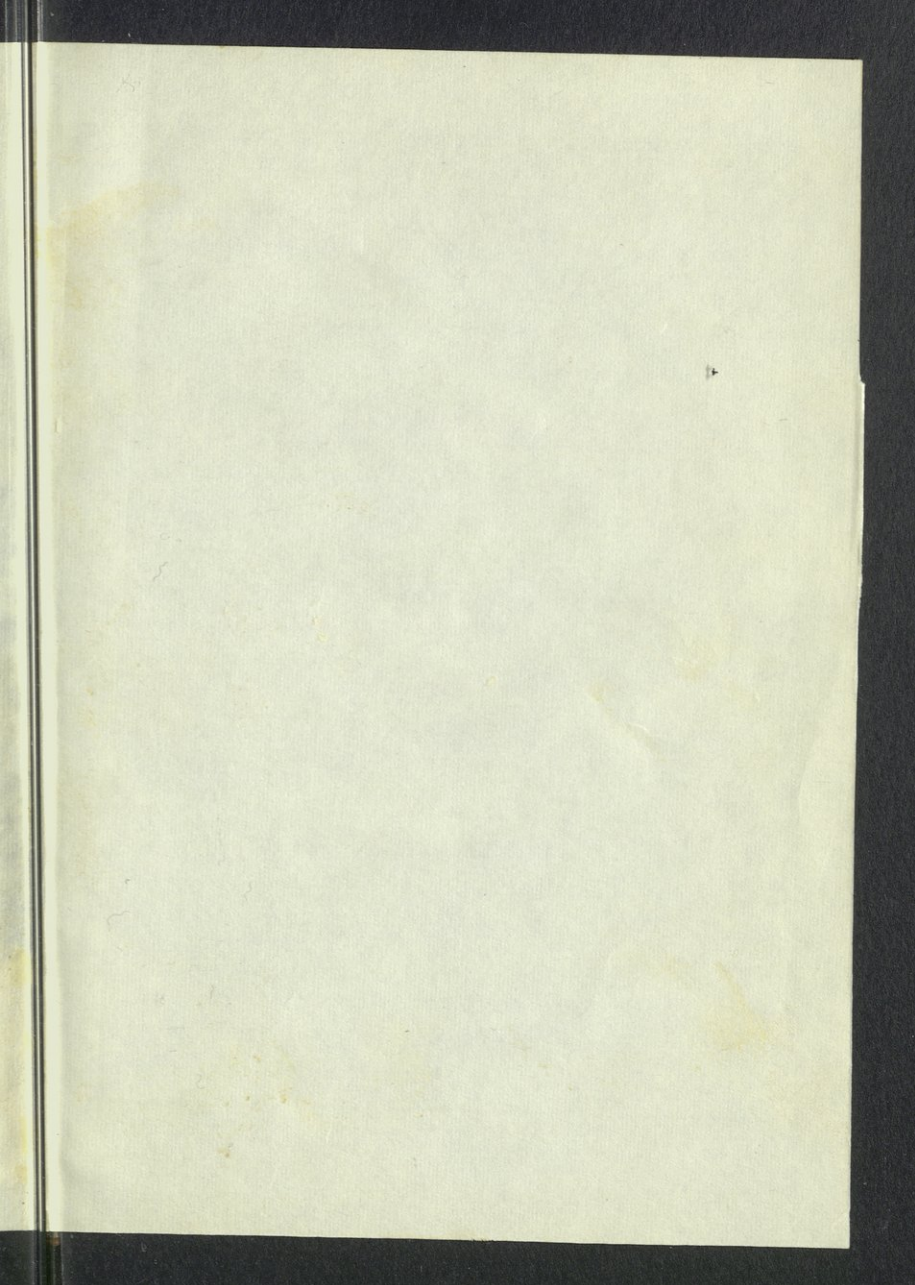
عباده من الظلمات إلى النور .

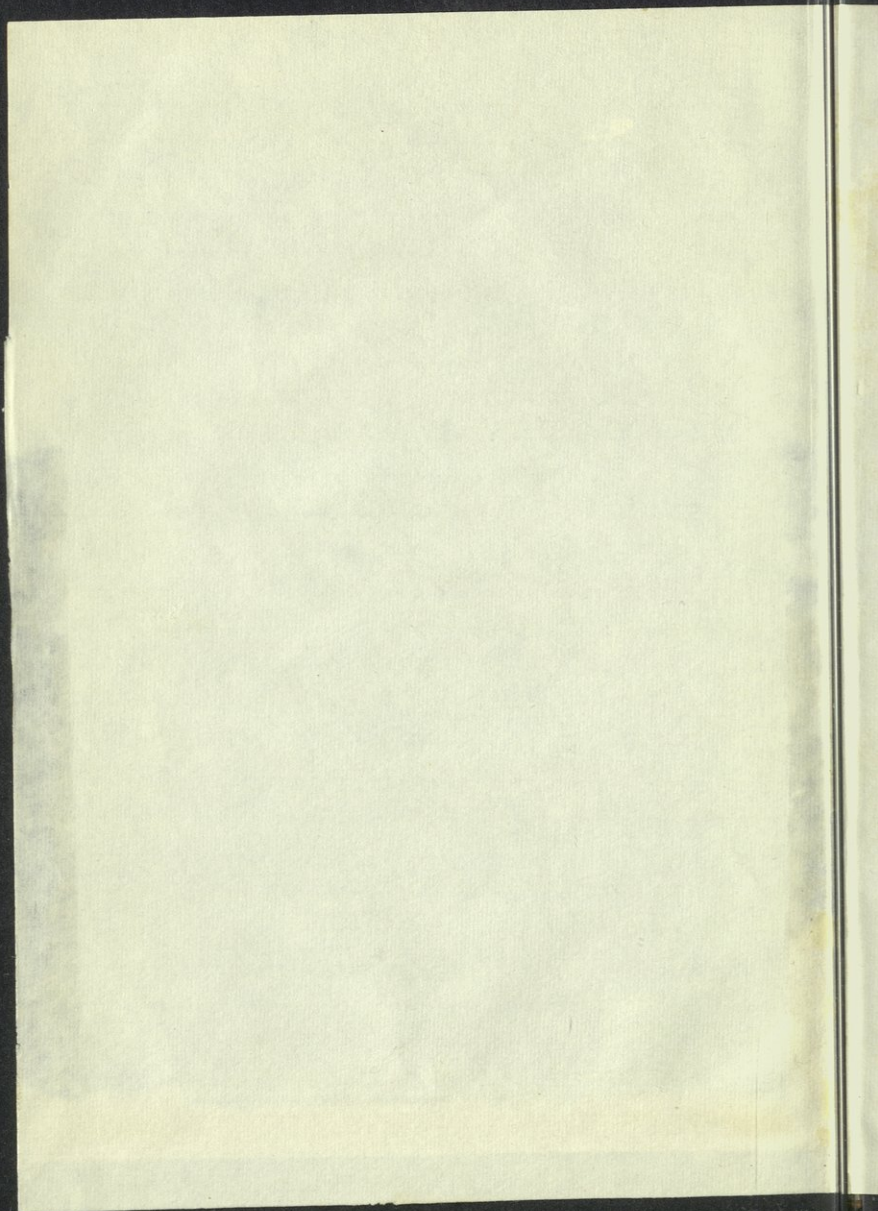
فهرست

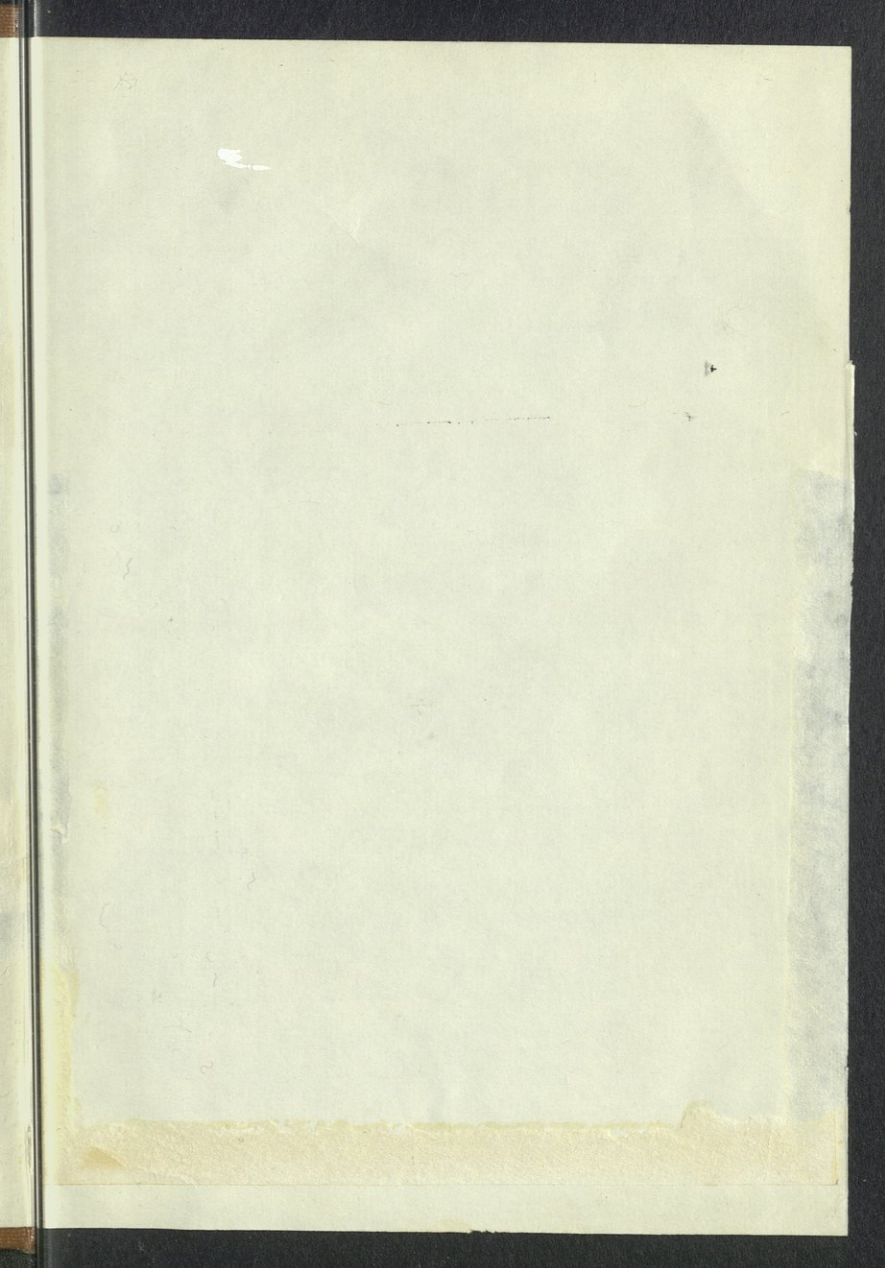
صفحة	المحاضرة	صفحة
٣	تمهيد	١١٩
١١	مقدمة	١٣٧
١٤	إهداء الرسالة	١٥٣
١٥	المحاضرة الأولى	١٧١
٣٠	الثانية	١٩١
٥١	الثالثة	٢٠٧
٦٨	الرابعة	٢٢٤
٨٥	الخامسة	٢٤٣
١٠١	السادسة	٢٦١

الزبدى : فسألت : هل الخانوت ؟ قال : لا ، إنما الخانوت هو الذي
قال : ما صنعت فيها ؟ قلت : تعجبني الكتب وتقليد (الرسائل)
لكن تحفظ زمنا طويلا ، وتكون للكتاب زينة . قال :









العريان، محمد سعيد

شیطان بنّاء ور او لبّ لقمان وهدد سر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01045181

